الفصل الخامس

بنو إسرائيل في التاريخ الإنساني العام

علماء التاريخ والكتاب المقدس

إن علماء التاريخ يعتبرون الآثار المادية التي خلفتها الجماعات البشرية على سطح هذا الكوكب هي أكثر المصادر دلالة على تاريخ هذه الجماعات ومدى إسهامها في الحضارة الإنسانية عامة ، وعلى ضوء هذه الحقائق المادية يمكن اكتشاف مدى صحة ودقة الروايات المكتوبة والشفوية التي دونتها وتناقلتها هذه الجماعات عن تاريخها وحضارتها . فالمصادر المادية الممثلة بالمخلفات الأثرية لا تخضع لمبالغة أو تنميق أو تحريف بسبب العواطف والمطامح والمطامع . ومن هنا ، فان الآثار التي خلفتها هذه الجماعات البشرية تبقى المعيار الحقيقي الذي على ضوئه يتم فحص مدى تطابق ما روته هذه الجماعات عن ذاتها ، أو ما رواه الآخرون عنها ، مع الواقع المادي المكتشف .

لذا فإن علماء التاريخ لا يعتمدون على النصوص الدينية مصدراً للتاريخ دون سند من مصادر أخرى مثل نتاج الإنسان الاصطناعي القديم، وتاريخ اليوميات الملوكية أو أرشيفات الممالك المجاورة، أو الدراسات الأركيولوجية (علم الآثار) . وعلى ضوء هذا، فإنه لا يوجد سند قاطع لمجمل التاريخ الموجود في الأسفار المبكرة للتوراة، وبالتالي فإن المؤرخين لا يقبلون أنه يمثل بالضرورة واقعا ملموسا بالرغم من احتمال وقوعه تاريخيا. ويرون بالأحرى أن التاريخ القديم للديانة اليهودية وللشعب اليهودي قد خرج من عالم قديم تختلط فيه الأسطورة مع التاريخ . وقد سُمي هذا الاختلاط في بعض

obeikandl.com

الأحيان "بالتاريخ المقدس" ومما هو واضح أن تاريخ الديانة اليهودية الأكاديمي قد خرج من التاريخ اليهودي المقدس " [1]

تركز اهتمام الباحثين الأثريين في البداية على الحضارات الكبيرة القديمة كالمصرية واليونانية والرومانية وحضارة ما بين النهرين بتكليف من المتاحف الأثرية الكبيرة في باريس وبرلين ولندن .

وعلى الرغم من أن أول من شكك في إلهية التوراة المكتوبة من الغربيين كان الفيلسوف اسبينوزا والمفكر توماس هوبز في القرن السابع عشر . إلا أن علم الآثار المتعلق بتاريخ بني إسرائيل لم يظهر إلا في مرحلة متأخرة نسبياً في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . وكان الهدف الأساسي للأبحاث الأثرية هو معرفة مدى التطابق بين ما روته التوراة ككتاب ديني وبين أرض الواقع .

تقول وزارة الخارجية الإسرائيلية " بدأت الحفريات الأثرية في أرض إسرائيل في منتصف القرن التاسع عشر ، عندما قام علماء العهود التوراتية بمسح المنطقة بحثًا عن أماكن ورد ذكرها في كتب العهد القديم والعهد الجديد. ولدى انتهاء القرن التاسع عشر وخصوصًا لدى بداية القرن ال٢٠ ، تم حفر العديد من التلال الأثرية ووضعت أسس البحث العلمي في مجال الآثار ِِِِِ.

واتسعت رقعة النشاطات الأثرية خلال عهد الانتداب البريطاني(١٩١٧– ١٩٤٨) وازدادت بعد تأسيس دولة إسرائيل. وأدت الخبرة التي تم اكتسابها خلال أعمال الحفريات إلى بلورة أساليب علم الطبقات الأثرية إضافة إلى بحث مفصل في تطوّر أشكال الأواني الفخارية وغيرها من المنتجات الصناعية، مما يفسح المجال أمام تحديد تأريخ الطبقة الأثرية. وخلال السنوات القليلة الماضية اتسع علم الآثار ليشمل مجالات غير معروفة نسبيًا للحضارات المادية القديمة مثل الغذاء والأمراض والاقتصاد والتجارة. وتم استخدام هذه الإنجازات لعلم الآثار الجديد في عشرات مواقع أثرية يتم حفرها . [2]

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ١٤

([2]) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

obeikandl.com

وفي حين كان هناك مؤرخون صادقون انتصروا للحقائق التاريخية حتى ولو خالفت روايات العهد القديم نجد أن هناك مؤرخين آخرين اعتمدوا العهد القديم وثيقة تاريخية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها حتى وإن خالفت الحقائق التاريخية والمكتشفات الأثرية .

لذا عمدت دولة إسرائيل على التركيز على الآثار اليهودية التي تعود إلى مملكة داود ولا تتعرض لآثار العربية السابقة عليها " وقد تركزت العديد من النشاطات في مجال الحفريات الأثرية في أورشليم القدس عاصمة إسرائيل حيث تم اكتشاف بقايا أثرية ل ٥٠٠٠ سنة من التأريخ: في مدينة داود ، أسوار المدينة الكنعانية وبقايا مبان تعود الى فترة مملكة إسرائيل الموحّدة ، بما في ذلك شبكة المياه المطوّرة تحت الأرض. ومن عهد الهيكل الثاني هناك بقايا أثرية للمباني العامة، والأسوار الإستنادية المحيطة بجبل الهيكل الذي لا يزال قائمًا، والمساكن الرائعة في المدينة العليا حيث يقع اليوم الحي اليهودي من البلدة القديمة والتي بقيت آثارها في المكان بعد أن قام الرومان بتدمير أورشليم القدس عام ٧٠ م ، إلى جانب المئات من شواهد القبور المزخرفة المصنوعة من الصخور التي تدل على الحياة الثرية في المدينة التي دمّرت. (١)

لقد تَعَرَّضَ تاريخ فلسطين دائِما للتشويه من قِبَل هؤلاء الباحثين ، خُضُوعًا لدوافعهم الدينية أو السياسِية .

فمنذ بدايات البحوث الأثرِية المنهجية عن فلسطِين، وهِي التِي بدأت فِي القرن العشرين، ورؤية التوقع التاريخي كانت مُزَيَّفَة، بِعامِل ديني مُسَبَّق؛ ذلِك أن الوثِيقة الأساسِية كانت الكِتاب المقدس، وانطِلاقا من هذا النص طرِحت كل المسائِل، فكانت المشكِلة الكبرى هِي مشكِلة الجانِب التاريخي .

فالخلط بين الحدث والإيمان يؤدي إلى ضروب من السذاجة، عندما تسبق النتائج "اللاهوتية" البحث التاريخي أو الأثرِي، وتَسْتَبِدُّ به. ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما نشر القَسُّ الألماني سلن عام ١٩١٣ تفاصيل حفريات في أريحا . ذكر أنه عثر فعلاً على الأسوار المُهَدَّمة، وأنه رأى فيها على الفَوْر تلك الأسوار التي هدَّها صوت طبول

---

(١) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

يشوع "يشوع ١٢/٢". والواقع أن البحوث التاريخية اللاحقة قد أثبتت على ما ذكر الأب دوفو أن الإسرائيليين الذين وصلوا في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد لم يستطيعوا الاستيلاء على أريحا؛ لأنها كانت حينئذ قد هُجِرَت .

وكذلك الحال بالنسبة إلى "الاستيلاء على عاي" من قبل يشوع، "يشوع ٨/١ . ٢٩" فإن الأب دوفو يؤكد "أن هذه القصة هي أكثر قصص الغزو تفصيلاً؛ فهي لا تتضمن أي عنصر خارق، بل تبدو كأنها الأكثر احتمالاً، ولقد كذَّبها علماء الآثار... فعندما وصل الإسرائيليون لم يكن هنالك مدينة في عاي، بل كانت أنقاضًا قديمة منذ ألف سنة ومائتي عام" (١)

ولكي نُبَيِّن إلى أية درجة من العنصرية الوحشية يمكن للاستخدام السياسي للكتاب المقدس أن يتحكَّم في المؤرخ، نقتصر على ذكر واحد من أشهر المؤرخين هو الأمريكي وليان فكسويل البرايت في كتابه "من العصر الحجري إلى العصر المسيحي: الوحدانية وتطورها" ص ٢٠٥: إنه يُبَرِّر "الإبادة المقدسة" في غزو كنعان، ثم يمُرُّ بمرحلة قَنَع الغازي بطرْد أبناء البلاد الأصليين، فينقل عن الكتاب المقدس : "وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدِّ السيف، وأشعلوا المدينة بالنار" "القضاة ٨/١" ثم إن "الله يطرد أمامكم الكنعانيين" "يشوع ١٠/٣" "وأنا أطرد أمامك الكنعانيين" "الخروج ٢/٣٣".

وبعد أن يذكر مثال طرْد الهنود من بلد يُضيف: "ونحن . الأمريكيين . ربما كنا أقل حقًّا من أغلب الأمم الحديثة، برغم نزعتنا الإنسانية الصادقة، في أن نحكم على الإسرائيليين في القرن الثالث عشر "ق.م"، فلقد أبَدْنَا، عن عَمْد أو غير عمد، آلاف الهنود، في جميع أرجاء بلدنا الكبير، وجمَعْنا كل مَن بقي منهم في معسكرات كبرى للتجميع".

ثم يضيف في هامش نفس الصفحة "٢٠٥" تلك المُجاهرة الحقيقة بالإيمان العنصري: "إن فلسفة التاريخ، التي هي قاضٍ متجرد نزيه، غالبًا ما ترى من الضروري اختفاء شعب ذي مستوًى دنيء، كيما يُخْلِي مكانه لشعب يتمتع بميزات ومَلَكات راقية؛ إذ إن اختلاط الأجناس يُصبح كارثة عند مستوى مُعَيَّن"، وقد سمح له

---

(١) الأب دوفو " تاريخ إسرائيل القديم " ص ٥٦٥ نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق

هذا الكلام أن يخرُج بنتيجة فيما يَخُصُّ الكنعانيين، فقال: "لقد كان الإسرائيليون الذين قاموا بالغزو شعبًا همجيًّا مزودًا بطاقة بُدائية، وإرادة للحياة شَرِسة، وكان هذا من أجل المستَقْبَل السعيد للوَحْدانية؛ ذلك أن إبادة الكنعانيين قد حالت دون انصهار شعبين في بُوتقة قرابتهما، فربما أدَّى هذا الانصهار . لو حدث . إلى إضعاف اليهوية " [1]

وسنحاول ذكر تاريخ بني إسرائيل حسب التاريخ الإنساني العام وبحسب ما قاله المؤرخون وما جاء في القرآن الكريم ، وما يتفق مع هذا من العهد القديم .

أصل العبرانيين

كان العبرانيون في الأساس شعباً رعوياً متجولاً من مكان إلى آخر، يضرب خيامه على حواف المدن الكنعانية ويتمتع برعاية الملوك الكنعانيين. وثمة نظرية أخرى تقول إنهم لم يكونوا رعاة وإنما كانوا يعيشون من الأرباح التي يحققونها من التجارة، وأنهم كانوا يوجدون على طرق القوافل، وأنهم باعتبارهم شعباً متجولاً لم يكونوا منعزلين ثقافيا. وهؤلاء يرون أن أصول الآباء ترجع إلى الآراميين، بل إن قبيلتين من القبائل العبرانية كانتا تريان أن دماء مصرية تجري في عروقهما، فقبيلتا إفرايم ومنَسَّى، تنتسبان إلى ابنى يوسف من زوجته المصرية حيث لم يكن التزوج من الأجنبيات أمراً مُحرَّماً بعد، فإبراهيم يتزوَّج هاجر المصرية ويهودا يتزوج كنعانية وتزوَّج يوسف مصرية، وتزوَّج موسى مَدْيَنية. ... [2]

هجرات العبرانيين إلى مصر

كان كثير من قبائل البدو السامية تستأذن فرعون مصر في الالتجاء إلى مصر، حيث كان فيها مجتمع زراعي مستقر يعتمد على الري وعلى فيضان النيل فراراً من جفاف أو مجاعة، ثم تخرج بعد ذلك. ولم يكن العبرانيون استثناءً من ذلك بأي شكل من الأشكال. ففلسطين مجتمع زراعي كان يعتمد على المطر. وثمة وثائق مصرية تتحدث عن بدو من أدوم وجنوب فلسطين تركوا منازلهم في زمن القحط ليبقوا على حياتهم وحياة قطعانهم. ومثل هذه المجاعات هي التي اضطرت إبراهيم وإسحق إلى التوجه جنوباً إلى مصر .

([1]) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية ". الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . مرجع سابق .

([2]) عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م٤/ ج١ " عصر الآباء " مرجع سابق .

وقد أرسل يعقوب أولاده لهذا السبب، ثم استقرت الأسرة كلها هناك ، وقد بدأت الهجرة السلمية لبعض الساميين تحت قيادة أمير بدوي يُقال له أبشاي أو أبشاه في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وثمة لوحة مقبرة خنوم . حوتب (أحد أشراف الأسرة الثانية عشرة) في بني حسن تصور الآسيويين يدخلون مصر لكي يحصلوا على الطعام. وهذه هجرات تشبه، في بعض الوجوه، هجرات إبراهيم وإسحق ويعقوب. وهي تبين أن قصة يوسف– فيما يتعلق بهذه الهجرات– مبنية على خلفية تاريخية عامة، كما أن كره المصريين للرعاة له هو الآخر أساس تاريخي .

فقد تحوَّلت الهجرة إلى تسلل والتسلل إلى غزو، حتى استولى خليط آسيوي سامي من الرعاة العموريين والكنعانيين والحوريين على السلطة في مصر خلال فترة الانحلال الثاني بدءاً من الأسرة الثالثة عشرة حتى الأسرة السادسة عشرة فيما يُعرَف باسم حكم الهكسوس. ورغم أن الهكسوس قد تبنوا الحضارة المصرية، فإن المصريين لم يتقبلوا الهكسوس قط، وقامت حركة تحرير بقيادة ملوك طيبة كُلّلت بالنجاح .

وقبل التعرُّض لموضوع دخول العبرانيين مصر وخروجهم منها، يجب التنبيه إلى أن لغتنا ستكون غير يقينية لأن الوثائق التاريخية المتاحة ليست قاطعة، وتترك مجالاً واسعاً للاختلاف. ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن حكم الهكسوس متزامن مع فترة الآباء، وأن هذه الفترة هي التي دخل إبَّانها العبرانيون مصر. فوجود الهكسوس– على ما يبدو – هو الذي سهل عملية دخول العبرانيين، وثمة رأي يذهب إلى أنه يوجد قرابة عرْقية بين الهكسوس والقبائل العبرانية (١)

بنو إسرائيل في مصر

والرأي المتفق عليه نهائيا بين العلماء أن بدء حكم الهكسوس لمصر لابد أن يقع بين عامي ١٧٣٠ و ١٧٢٥ ق .م (٢) وأن هجرة بني إسرائيل إلى مصر إبان يوسف عليه السلام كانت ما بين عامي (١٦٧٥و ١٦٥٠) ق. م .

وإليك ما جاء في التوراة بشأن دخول بني إسرائيل مصر

" وَمَثَّلَ يُوسُفُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ (١) وَقَالَ لَهُ: «لَقَدْ جَاءَ أَبِي وَإِخْوَتِي مَعَ قُطْعَانِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ وَكُلِّ مَا لَهُمْ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهَا هُمُ الآنَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ». ٢وَأَخَذَ خَمْسَةً مِنْ

(١) نفسه م٤ ، الباب الثالث: مصر والإمبراطورية الحيثية . مرجع سابق .
(٢) د. أحمد فخري " مصر الفرعونية " مكتبة الأنجلو المصرية ص ٢٠٦

إِخْوَتِهِ وَقَدَّمَهُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ. ٣فَسَأَلَهُمْ فِرْعَوْنُ: «مَا هِيَ حِرْفَتُكُمْ؟» فَأَجَابُوهُ: «عَبِيدُكَ وَآبَاؤُهُمْ رُعَاةُ غَنَمٍ. ٤وَلَقَدْ جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ إِذْ لَيْسَ لِغَنَمِ عَبِيدِكَ مَرْعًى مِنْ جَرَّاءِ وَطْأَةِ الْجُوعِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، فَدَعْ عَبِيدَكَ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ».(التكوين : ٤٧)

" فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: «لَقَدْ جَاءَ إِلَيْكَ أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ، ٦وَأَرْضُ مِصْرَ أَمَامَكَ، فَأَنْزِلْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ. دَعْهُمْ يُقِيمُونَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَيْنَهُمْ ذَوِي خِبْرَةٍ فَاعْهَدْ إِلَيْهِمْ فِي الإِشْرَافِ عَلَى مَوَاشِيَّ».(التكوين:٤٧)

" وَأَنْزَلَ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ فِي مِصْرَ وَمَلَّكَهُمْ فِي رَعَمْسِيسَ أَجْوَدَ الأَرْضِ كَمَا أَمَرَ فِرْعَوْنُ. ١٢وَأَمَدَّ يُوسُفُ أَبَاهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَهْلَ بَيْتِ أَبِيهِ بِالطَّعَامِ عَلَى حَسَبِ عِيَالِهِمْ." (التكوين : ٤٧)

وجمهرة المؤرخين يؤكدون أن هذا قد تم في عهد الهكسوس حوالي ١٦٥٠ ، ولكن ذكر مدينة " رعمسيس " يتناقض مع هذا التاريخ فالثابت أنها ستبنى في عهد رمسيس الثاني الذي حكم مصر حوالي ١٢٨٠ ق. م .

ويزيل سليم حسن مؤرخنا الكبير هذا التناقض فيقول " إن مجيء يوسف على حسب التقديرات المعقولة كان قد حدث في عهد الهكسوس فليس هناك كبير شك في أن حوادث عهد الهكسوس قد صوِّرت بشكل ما في قصة خروج بني إسرائيل غير أن ذكر مدينة " رعمسيس " (قنتير الحالية) تدخل في القصة عنصرا من عهد متأخر ، وعلى ذلك فليس من المستحيل أن تكون الاقتباسات التي اقتبسها " يوسفس " من " مانيتون" (المؤرخ المصري الشهير) و " كارمون " توحي بأن حوادث قد وقعت فيما بعد في أوائل الأسرة التاسعة عشرة ، وأنها اختلطت بذكر حوادث الهكسوس . " [٢]

وبهذا يرتفع اللبس الذي أحدثه ذكر مدينة " رعمسيس " في عهد الهكسوس .

ولقد عاون بنو إسرائيل الهكسوس على حكم مصر أو استخدمهم الهكسوس كجماعة وظيفية لتسخير المصريين لهم كما جاء في التوراة .

([١]) تلقب ملوك الهكسوس بألقاب حكام مصر فكان يطلق على الحاكم لقب ، ملك أو فرعون .

([٢]) سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " الجزء السابع الهيئة العامة للكتاب ص ١١٤

obeikandl.com

" اشْتَرَى يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّ جَمِيعَ الْمِصْرِيِّينَ بَاعُوا حُقُولَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ الْمَجَاعَةِ الَّتِي أَلَمَّتْ بِهِمْ، وَصَارَتْ كُلُّ الأَرْضِ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ. ٢١أَمَّا الشَّعْبُ فَقَدْ نَقَلَهُمْ إِلَى الْمُدُنِ مِنْ أَقْصَى حُدُودِ مِصْرَ إِلَى أَقْصَاهَا... ٢٣ثُمَّ قَالَ يُوسُفُ لِلشَّعْبِ: «هَا قَدِ اشْتَرَيْتُكُمُ الْيَوْمَ أَنْتُمْ وَأَرْضَكُمْ فَصِرْتُمْ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ، فَإِلَيْكُمِ الْبِذَارَ لِتَزْرَعُوا الأَرْضَ. ٢٤وَيَكُونُ فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ أَنَّكُمْ تُقَدِّمُونَ لِفِرْعَوْنَ خُمْسَ الْغَلَّةِ وَتَحْتَفِظُونَ لَكُمْ بِالأَرْبَعَةِ الأَخْمَاسِ لِتَكُونَ بِذَاراً لِلْحَقْلِ وَطَعَاماً لَكُمْ وَلِمَنْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلأَوْلاَدِكُمْ». ٢٥فَأَجَابُوا: «لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتَنَا، فَيَا لَيْتَنَا نَحْظَى بِرِضَى سَيِّدِنَا فَنَكُونَ عَبِيداً لِفِرْعَوْنَ» ٢٦وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا جَعَلَ يُوسُفُ فَرِيضَةَ الْخُمْسِ هَذِهِ ضَرِيبَةً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ، تُجْبَى لِفِرْعَوْنَ، بِاسْتِثْنَاءِ أَرْضِ الْكَهَنَةِ الَّتِي لَمْ تُصْبِحْ مِلْكاً لِفِرْعَوْنَ " (التكوين : ٤٨)

ولقد اعتبر المصريون أن بني إسرائيل هم الذين استعبدوهم لصالح الحاكم الأجنبي وأنهم استولوا على أملاكهم .

" وَأَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَاقْتَنَوْا فِيهَا أَمْلاَكاً وَأَثْمَرُوا وَتَكَاثَرُوا . " (التكوين : ٤٨)

والشعب المصري على مدى تاريخه قد يقبل الظلم من حاكمه إن كان مصريا أو أجنبيا يدين بديانته (كالعرب والمماليك والترك) لكنه أبداً لا يقبل أن يعش تحت ظل حاكم أجنبي على غير دينه (كالهكسوس والفرس والرومان والصليبيين ..) وإن كان عادلا .

يقول د. جمال حمدان " إن المصري ليوشك أن يتصف بمتناقضة غير عادية إن لم تكن محيرة ، بين سهولة الانقياد والخضوع للحاكم في مجال السياسة والداخل ، وبين الشجاعة الوطنية الفائقة والصلابة العسكرية النادرة في مجال الحرب في الخارج ، ولقد يرى العكس أنه لا تناقض حقيقي بين الصفتين بقدر ما هما متكاملتان بمعنى أن العوامل والظروف التي جعلته سهل الخضوع للحاكم ويفضل السلامة في الداخل هي نفسها التي تجعله مقداما فدائيا بالغ الجرأة في القتال في الخارج " (١)

(١) جمال حمدان " شخصية مصر " ج٢ / ص ٧١١ دار الهلال .

وفي محاولة تفسير حركة طرد العبرانيين من مصر يمكننا القول بأنه عند تحرير مصر من الهكسوس طُرد معهم حلفاؤهم العبرانيون. أما من بقوا منهم، فقد اعتُبروا أجانب وتحوَّلوا إلى أرقاء وعبيد سُخِّروا في أعمال البناء والمشاريع الإنشائية التي كان يقوم بها الفراعنة، ومن هنا أصبحت مصر، بالنسبة إليهم أرض العبودية." (١)

لذا عندما تمكن المصريون في عهد أحمس الأول من طرد الهكسوس حوالي عام ١٥٧٠ ق .م فإنهم قاموا باضطهاد واستعباد بني إسرائيل الذين عاونوا الهكسوس في حكم مصر .

" وَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. ٩فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هَا بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْثَرُ مِنَّا وَأَعْظَمُ قُوَّةً. ١٠فَلْنَتَآمَرْ عَلَيْهِمْ لِكَيْلاَ يَتَكَاثَرُوا وَيَنْضَمُّوا إِلَى أَعْدَائِنَا إِذَا نَشَبَ قِتَالٌ وَيُحَارِبُونَا ثُمَّ يَخْرُجُوا مِنَ الأَرْضِ». ١١فَعَهِدُوا بِهِمْ إِلَى مُشْرِفِينَ عُتَاةٍ لِيُسَخِّرُوهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ. فَبَنَوْا مَدِينَتَيْ فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ لِتَكُونَا مَخَازِنَ لِفِرْعَوْنَ. ١٢وَلَكِنْ كُلَّمَا زَادُوا مِنْ إِذْلاَلِهِمْ، اِزْدَادَ تَكَاثُرُهُمْ وَنُمُوُّهُمْ، فَتَخَوَّفُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٣فَتَفَاقَمَ عُنْفُ اسْتِعْبَادِ الْمِصْرِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. ١٤وَأَنْعَسُوا حَيَاتَهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ كَادِحِينَ فِي الْحُقُولِ. وسَخَّرَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ بِعُنْفٍ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمِ الشَّاقَةِ. (الخروج : ١)

ولم يكن دافع فرعون مصر – رمسيس الثاني على الأرجح – لاضطهاد بني إسرائيل مساعدتهم للهكسوس على استعباد المصريين فحسب بل قيامهم بأعمال تعد خيانة عظمى للوطن .

فقد نسبت بعض البرديات القديمة ثورة المصريين على بني إسرائيل إلى ما كان يقومون به من أساليب لاغتصاب أملاك الفلاحين وابتزاز أموالهم فكانوا أول من ابتدع الربا والمراهنة كما كانوا يجمعون الذهب والفضة نظرا لتخصصهم في صناعة المصاغ ويهربونه خارج البلاد .

أما ثورة فرعون الأخيرة عليهم والتي انتهت بطردهم من مصر فينسبها المؤرخ " نافيل " إلى خيانتهم للوطن عندما كانوا يهربون أولادهم من التجنيد أو أعمال الحرب

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ / ج ١ " عصر الآباء" . مرجع سابق .

وانتهزوا فرصة انشغال فرعون وجيشه في محاربة الليبيين على الحدود الغربية فقاموا بتهريب الغلال والماشية والذهب إلى سوريا والبلاد الآسيوية وكانوا يشرفون على مخازن التموين وصوامع الغلال في بر رعمسيس ومنف مما تسبب في مجاعة في البلاد وتوقف إمداد الجيوش المحاربة بالتموين .

فأوقف فرعون معاركه وعاد إلى العاصمة حيث أعد خطة للقضاء عليهم . (١)

ويؤكد هذا اللوحة التي كشف عنها الأستاذ " فلندرز بتري " وهي التي دوَّن عليها أنشودة انتصار " مرنبتاح " – ابن رمسيس الثاني – على أعدائه والمنقوشة على لوحة تذكارية من الجرانيت الأسود وهي المسماة " لوحة إسرائيل " والتي جاء فيها أن من أعمال مرنبتاح العظيمة هي انتصاره على الليبيين وقضائه على بني إسرائيل وتطهير مصر منهم .

" قد أشرق السرور العظيم على مصر ، وانبعث الفرح من بلدان " الدميرة " (مصر) وتحدَّث الناس عن الانتصارات التي أحرزها " مرنبتاح " على " التحنو " (الوبيين) ما أعظم حبهم للأمير المظفر ، وما أكثر تعظيمهم له بين الآلهة ، وما أسعده حظا رب القيادة ، آه إنه لحسن الحظ أن يجلس الإنسان يتحدث والناس تغدو وتروح ثانية دون عائق ما في الطريق ، وليس هناك خوف في قلوبهم .

وقد ترك المعاقل وشأنها ، وأصبحت الآبار مفتوحة ومسالكها سهلة ومعاقل الحوائط أصبحت هادئة ، ولا يوقظ حراسها إلا الشمس ، وجنود " المازوي " نيام راقدون بلا حركة أما " النياو " و" التكتن " فإنهم يطوفون بالحقول على حسب رغبتهم ، وماشية الحقول قد تركت تذهب جائلة بدون راعٍ وتعبر ماء النهر الذي يحد مراعيها ، ولم تسرق كذلك على الجانب المقابل لهذه المراعي ، وليس هناك نداء لليل : قف قف . بلغة الأجانب .

والناس يروحون ويغدون مغنين ، وليس هناك صياح قوم يتوجعون ، والمدن أصبحت كرة أخرى معمورة ، وذلك الذي زرع غلة سيأكل منها أيضا .

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية ص ٢٥١. الهيئة العامة للكتاب .

ولقد وجهه " رع " إلى مصر ثانية وقد ولد مقدَّرا له حمايتها ، هو الملك " مرنبتاح " .

ويقول الرؤساء مطروحين أرضا : السلام .

ولم يعد يرفع واحد من بين قبائل البدو تسعة الأقواس رأسه (اسم لجيران المعادين لها) .

التحتو قد خربت .

وبلاد " خاتي " أصبحت مسالمة .

" وكنعان " أُسرت مع كل خبيث .

وأُزلت " عسقلان " .

" وجيزر " قُبض عليها .

" وبنوم " أصبحت لا شيء .

وإسرائيل خُربت وليس بها بذر " (١)

ويعلق سليم حسن على العبارة الأخيرة الخاصة ببني إسرائيل فيقول " هذا هو أوَّل عهدنا باسم إسرائيل ، بل هي المرة الأولى التي ذكر فيها الاسم في نص مصري ، وبموازنته بأسماء أخرى نجد أن كلمة إسرائيل كتبت لتدل على شعب لا على بلد " (٢) ويقول في موضع آخر " هذه اللوحة قد ذكرت لنا إسرائيل للمرة الأولى والأخيرة أيضا وعلى ذلك تكون الإشارة إلى هؤلاء القوم هنا تشير إلى حادثة الخروج وعدم وجودهم في مصر ، " إني لا أزال مُسَلِّماً بوجهة النظر التي أدلى بها " لبسيوس " عن موضوع خروج بني إسرائيل – وهي التي يقتفيها معظم الأثريين – أن مضطهد اليهود هو " رعمسيس الثاني " الذي كان حكمه الطويل بداية انحلال الإمبراطورية المصرية ، وأن الفرعون الذي ينسب إليه خروج بني إسرائيل ابنه " مرنبتاح " (٣)

ثم يخلص سليم حسن إلى النتيجة التالية :

---

(١) نقلا عن سليم حسن " موسوعة مصر القديمة " الجزء السابع مرجع سابق . ص ١٠٠ ، ١٠١ .
(٢) نفسه ص ١٠١
(٣) نفسه ص ١٠٩

obeikandl.com

" والنتيجة التي يمكن استخلاصها من كتابة هذا المخصص (عن بني إسرائيل) هي : أن بني إسرائيل كانوا أجانب لا وطن لهم ، فقد كانت التوراة تسميهم " أبناء إسرائيل " وأنهم ليسوا من سكان هذه البلاد ولا تلك ومن ذلك نعلم أن عناصر النقش نفسه (النقش الذي ذكر قضاء مرنبتاح على بني إسرائيل) تعارض الرأي القائل : بأن الإسرائيليين كانوا يسكنون " فلسطين " بل على العكس يميل إلى الرأي القائل : بأن البلاد التي كانت تفيض بالمن والسلوى لم تكن قد احتلت بعد ، فقد كانت كنعان (فلسطين) لا تزال الأرض الموعودة لا الأرض المملوكة ، والواقع أن ما جاء في متن هذه اللوحة على ما يظن يعد سجلا معاصرا لخرج بني إسرائيل مع حوادث أخرى كما يدل دلالة واضحة على أنه قد وقع في السنة الخامسة من عهد مرنبتاح " [1] أي ما بين عامي ١٢٥٠ و١٢٣٠ ق.م

والقرآن الكريم يذكر تعبيد فرعون لبني إسرائيل .

قال موسى لفرعون : { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: وما أحسنت إلي وربَّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدا وخدما، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرتَه شيئا بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم. [2]

فكأنه يقول له : إن ما تمنّ به عليَّ هو فى الحقيقة نقمة ، وإلا فأية مِنَّة لك علىّ فى استعبادك لقومى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمى من قتلك لى هو الذى حملها على أن تلقى بى فى البحر ، وتربيتى فى بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك [3]

وهناك سبب رابع لتعبيد فرعون لبني إسرائيل غير مساعدتهم للهكسوس ، وإساءتهم للمصريين ، والخيانة العظمى . وهو أن فرعون كان قد رأى رؤيا هالته، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، ويقال: بل تحدث سُمَّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذَكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأراذلها.[4]

([1])نفسه ص ١١٢

([2])تفسير ابن كثير ٦ / ١٣٨ .

(٣) تفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي ص ٣١٥٥

([4]) تفسير ابن كثير ١ / ٢٥٨ .

{ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ } (البقرة : ٤٩)

وقيل أن الكهنة هم الذين قالوا لفرعون : إن مولودا يولد في بنى إسرائيل يذهب ملكك على يديه، أو قال المنجمون له ذلك، أو رأى رؤيا فعبرت كذلك . (١)

وفي هذا الجو المشحون ضد بني إسرائيل وُلِد موسى عليه السلام وخافت عليه أمه من المصير الذي يلقاه الذكور من مواليد بني إسرائيل فدعت الله أن ينجي ابنها ، واستجاب الله لها فأرضعته ووضعته في تابوت وألقته في نهر النيل ، وأمر الله تعالى التابوت أن يسير إلى قصر فرعون الذي يطل على النهر ورأت آسيا زوج فرعون التابوت فالتقطته من بين الماء والعشب ، ومن هنا سمته موسى حيث تعني " مو " الماء ، " سَى " العشب ، وطلبت آسيا زوج فرعون منه أن تتبنى هذا الولد بحيث يصبح كابن حقيقي لها ولفرعون . { وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا } (القصص : ٩)

وهكذا عاش موسى في قصر فرعون يتمتع بالعناية ويعامل كأمير من أسرة فرعون إلى أن حدثت مشادة بين موسى وأحد المصريين مات المصري على إثرها دون قصد من موسى الذي أسرع بالهرب بعد أن أخبره أحد خلصائه بعزم ملأ فرعون على قتله ، ومكث موسى عشر سنوات في أرض مدين ، وهو في طريق عودته إلى مصر أمره الله تعالى إن يذهب إلى فرعون ويدعوه إلى الحق والتوحيد لكن فرعون أبى واستكبر وأصر على كفره فعرض عليه موسى مطلبا واحدا أن يسمح له بالخروج ببني إسرائيل إلى الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم إلا أن فرعون أبى وزاد بني إسرائيل تسخيراً فأوقع الله على فرعون وقومه الرجز مما اضطر فرعون أن يرسل بني إسرائيل مع موسى { وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى {٧٧} فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ } (طه : ٧٧، ٧٨)

ويظهر من الدلائل التاريخية المقارنة أن موسى عليه السلام قاد بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة في النصف الأخير من القرن ١٣ ق.م أي أواخر العصر البرونزي

---

(١) تفسير القرطبي ١٣ / ١٤٨

المتأخر، ولم يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة في عهد موسى عليه السلام بسبب عصيانهم الله وعبادتهم العجل . وقبل الحديث عن كيفية دخول بني إسرائيل أرض فلسطين نذكر لمحة تاريخية عن فلسطين قبل غزو بني إسرائيل لها

فلسطين عربية

يرجع المؤرخون هجرة العموريين (الأموريون) والكنعانيين، وكذلك اليبوسيين والفينقيين (وهما من البطون الكنعانية) إلى فلسطين ، إلى الألف الثالث قبل الميلاد فقد كانت هجرتهم إلى فلسطين حوالي ٢٥٠٠ ق.م، حيث استقر الكنعانيون في سهول فلسطين، وتركز العموريون في الجبال، واستقر اليبوسيون في القدس وما حولها وهم الذين أنشئوا مدينة القدس وأسموها "يبوس" ثم "أورسالم"، أما الفينيقيون فاستقروا في الساحل الشمالي لفلسطين وفي لبنان .

كما يرى ثقات المؤرخين أن العموريين والكنعانيين واليبوسيين والفينيقيين قد خرجوا من جزيرة العرب وأن سواد أهل فلسطين الحاليين وخاصة القرويين هم من نسل تلك القبائل والشعوب القديمة أو من العرب والمسلمين الذين استقروا في البلاد إثر الفتح الإسلامي لها .

لقد كانت هجرة الكنعانيين واسعة في تلك الفترة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، واسم أرض كنعان هو أقدم اسم عرفت به أرض فلسطين، وقد أنشأ الكنعانيون معظم مدن فلسطين، وكان عددها – حسب حدود فلسطين الحالية – لا يقل عن مائتي مدينة خلال الألف الثاني قبل الميلاد وقبل قدوم العبرانيين اليهود بمئات السنين. ومن المدن القديمة فضلاً عن أريحا والقدس مدن شكيم (بلاطة، نابلس) وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر وبئر السبع وبيت لحم

كانت فلسطين . آنذاك . بلدًا مزدهرًا، حتى لقد عُرِضَت قِصَّة فرِيدة لِوصفِهِ بِالكثِيرِ مِن الحرص، وهِي قِصة أَمِير مصري مهاجر، يُسَمَّى سينوهي حوالي سِنَّة ٢٠٠٠ قِ.م قال: "إن فِيها تِينًا وعنبًا، وإن خمرها أغزر من الماء، وعسلها كثِير، وزيتونها وفِير، وكل ما تشتهيه من أنواع الفواكِه تجود بِهِ الأشجار .

ويدل ما تحدث عنه سينوهي من وفرة زراعية على أن الشعب كان يتألَّف مِن مزارعين، ومُرَبِّي ماشِية، وتجار . أيضا . إذ إن الحفرِيات قد كشفت عن أوانٍ، وأسلِحة مِن البرونز، اجتُلِب نحاسها من الأناضول.

كانت سِمات هذا العصر وجود القلاع الحصِينة، وإن كانت ضَيِّقَة "فقلعة جزر ، وهِي مِن أكبرها، لم تزِد على ألف ومائتي متر، فِي محِيطها، وقلعة أريحا كان محِيطها سبعمائة وثمانية وسبعينِ مترا" ، وكانت هذِهِ القلاع فِي أكثر الاحتِمال مخازن للمؤن، وملاجئ فِي حال أي هجوم، وفِي أقل الاحتِمال مسكنا دائِما، وكانت تغذيتها بِالمِياهِ تتِم عبر قنوات مائية تحت الأرض "على عمق ثلاثِين مترا تقرِيبا فِي جزر، وبطول سبعينِ مترا، لتجتذب الماء من أقرب نبع". (١)

دخول بني إسرائيل أرض كنعان

مكث بنو إسرائيل في صحراء سيناء أربعين سنة عقوبة لهم على عدم امتثالهم لأوامر الله ولم يدخلوا فلسطين إلا بعدما استقاموا على شرع الله وأطاعوا يوشع بن نون الذي عهد إليه موسى بأن يدخل ببني إسرائيل الأرض المقدسة أرض كنعان ليعملوا بالشريعة التي فرضها الله عليهم وكان ذلك عام ١٢٥٠ ق. م .

ولما كان العبرانيون قبائل بدوية بدائية لا قدرة لها على حرب الفلسطينيين فضلا عن الاستيلاء على أرضهم ، لذا لم يكن أمامهم سوى التسلل التدريجي فيها، وقد كانت عملية طويلة استمرت ما بين ١٢٥٠ و١٢٠٠ ق.م. وما كان لهذا التسلل أن ينجح لولا تضافر عدة عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية، لعل أهمها كان الغياب المؤقت للإمبراطوريات العظمى في تلك المرحلة. فالإمبراطورية الحيثية في الشمال كانت قد انهارت في الربع الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت عوامل الضعف تزحف على القوة المصرية في الجنوب التي تضاءلت هيمنتها على كنعان، ولم تكن آشور قد أصبحت بعد قوة عظمى ذات أهمية. أما في كنعان ذاتها، فقد كانت المدن الكنعانية قد أحرزت تقدماً حضارياً ملحوظاً.

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية ". الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية .مرجع سابق .

openkandil.com

ومع ذلك، كانت هذه المدن تتطاحن فيما بينها، وهو ما أدَّى إلى تَدهور الوضع الأمني في البلاد. ويبدو أن الوضع الإثني في كنعان كان يتَّسم بعدم التجانس، فالعهد القديم يذكر دائماً الأقوام السبعة التي تقطن المكان ويزداد العدد أحياناً ليصل إلى عشرة في سفر التكوين (٢١.١٩/١٥) « القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والعموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين ». وهذه نقطة أدركها جواسيس موسى، فقد ذهبوا ورأوا أرضاً «تفيض لبناً وعسلاً وأن مدنها حصينة عظيمة جداً » أي أنها تتمتع بقدر عال من التقدم الحضاري. ولكنهم لاحَظوا أيضاً تنوعها الإثني، إذ قالوا: «العمالقة ساكنون في أرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والعموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن » (عدد : ٢٩) .

ومع هذا، لم يحرز العبرانيون نصراً عسكرياً، فلم يحتلوا سوى بعض المناطق الجبلية عن طريق استخدام التجسس والتخريب وعنصر المفاجأة. أما في السهول، حيث توجد العربات الحربية، فقد ظلت الهيمنة للكنعانيين. ويظهر هذا في رد قبيلة يوسف على يوشع بن نون حين يقولون: « لا يكفينا الجبل، ولجميع الكنعانيين الساكنين في أرض الوادي مركبات حديد » (يشوع : ١٧). والوضع نفسه ينطبق على قبيلة يهودا، فقد ملكت الجبل لكنها لم تطرد سكان الوادي « لأن لهم مركبات حديد » (يشوع :١٧) .

ويعترف المؤرخون الأكاديميون اليهود بأن العبرانيين لم يدخلوا فلسطين عن طريق الغزو كما جاء في العهد القديم إنما عن طريق التسلل كما أثبت المؤرخون فيقولون : " يوصف عادة دخول الأرض بعد أربعين سنة في الصحراء أنه غزو، والسبب في ذلك يرجع إلى سفر يشوع الذي يذكر أن بني إسرائيل استولوا على الأرض بقوة السلاح. وذلك لأن جيلا من المقاتلين الأشداء الذين قوتهم الحياة في الصحراء أربعين سنة اجتاح السكان المحليين بإرادة الله . لكن التنقيبات الأثرية الحديثة لا تعزز هذا الوصف لعدم وجود أي آثار للدمار أو طبقات محروقة مثل التي توجد في الأماكن التي تعرف بأن الغزو والاحتلال وقع فيها .

وبالتالي فقد اقترح المؤرخون الأكاديميون احتمال دخول بني إسرائيل إلى الأرض على شكل هجرة كبيرة توصلت في النهاية إلى السيطرة على الأديان والثقافات المحلية

في المنطقة، وأثارت في بعض الأحيان معارك أدت إلى المقاومة لكنهم نجحوا بسبب قوة الأعداد " (١)

ومن يقرأ سفر القضاة العدد الأول ، ويشوع العدد السادس عشر يعرف أن الغزو العبراني كان مجرد استيطان في عدة جيوب غير مترابطة، رغم كل التهويل الخاص بقتل عشرات الملوك. ويؤكد السفر أن الكنعانيين كانوا يقطنون وسط العبرانيين. بل يمكن القول بأن العبرانيين ظلوا مُشرَّدين لاجئين على قمم التلال، ومن تجرَّأ منهم ونزل إلى السهول أصبح خادماً أو عبداً. وظل هذا الوضع فترة طويلة جداً، ففي سفر الملوك الأول إشارة إلى إله العبرانيين باعتباره « إله جبال لذلك قووا علينا. ولكن إذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم »

(ملوك أول : ٢٠) .

ولا يمكن فَهْم هذا التسلل العبراني باعتباره غزواً بالمعنى العادي، فهو تسلل يعتمد على القوة العسكرية أحياناً وعلى المكر أحياناً أخرى وعلى التزاوج في بعض الأحيان . كما أن العبرانيين المتسللين تزاوجوا مع أقاربهم الذين لم يهاجروا معهم إلى مصر كما تزاوجوا مع الكنعانيين. وقد سيطر العبرانيون في نهاية الأمر على قسم كبير من أراضي فلسطين الشمالية، فاستوطنت قبائل يهودا وبنيامين الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس، واستوطنت القبائل الأخرى السهول الشمالية، وقام اتحاد القبائل المعروف بالمملكة العبرانية المتحدة وهكذا حقق الرب لهم ما وعد بعدما استقاموا على الشريعة ونبذوا الفرقة واتحدوا تحت راية الإيمان.

إن "البحث التاريخي . كما قال فون راد . قد بيَّن أن إسرائيل هو اسم هذا الاتحاد الكونفديرالي (٢) المُقدس بين الأسباط، الذي تكوَّن في فلسطين، بعد دخولهم إلى هذا البلد" (٣)

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٢٧– ٢٨

(٢) اتحاد كونفديرالي: هو اتحاد بين دُوَل تحتفظ فيه كل دولة بسيادتها وتَحِل مسائلها العامة في مؤتمر جامع له صفة سياسية لا تشريعية .

(٣) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول : تاريخ أرض ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . مرجع سابق .

قصة إبادة بني إسرائيل للفلسطينيين بين الحقيقة والتهويل

ومن القضايا التي تثار، عمليات الإبادة الافتراضية التي صاحبت التسلل العبراني، فحسب ما جاء في العهد القديم كان العبرانيون لا يكتفون بفتح المدن وإنما كانوا يقومون بإتلاف وتدمير كل ما تقع عليه أيديهم من إنجازات مادية أو حضارية وبإبادة الرجال والنساء والشباب والشيوخ والثيران والخراف والحمير بحد السيف. ويذكر العهد القديم بفخر واضح الألوف التي تمت إبادتها.

ومما لا شك فيه أن الحديث عن الإبادة، مثل الحديث عن الانتصارات العسكرية، أمر مبالغ فيه. ومع ذلك يظل هناك جزء من الحقيقة. ولعل اتجاه العبرانيين نحو الإبادة هو تعبير عن تَخلُّفهم الحضاري .

فالعبرانيون كما أسلفنا كانوا جماعات متحركة هاربة من مصر ، دخلت أرضاً فيها مدن مستقرة بلغت مرحلة حضارية وثقافية أعلى وأكثر رقياً. ولم يكن تحقيق الانتصار الاستيلاء على هذه المدن ممكناً إلا عن طريق الإبادة الجسدية والإفناء المادي الشامل بسبب غياب أية مؤسسات إدارية عبرانية تتمتع بقدر من التركيب. كما أنهم، نظراً لتخلفهم الاقتصادي والحضاري، لم تنشأ عندهم الحاجة إلى الأيدي العاملة التي كان الأسرى من أهم مصادرها. ومن هنا، نجد أن العبرانيين كانوا يتخلصون من الأسرى بإبادتهم جسدياً. وقد استمر هذا الوضع حتى بعد إنشاء الدولة العبرانية المتحدة التي كانت تَسدُّ حاجتها من الأرقاء والعبيد المطلوبين لأداء خدمات يومية اعتيادية للأرستقراطيين والموسرين عن طريق استعباد المذنبين والأفراد الذين يعجزون عن تسديد ديونهم فيبيعون أنفسهم أو أبناءهم ليكونوا عبيداً لدى الدائن. (١)

لكن السؤال هنا لماذا توراة اليهود تؤكد على إبادة بني إسرائيل للكنعانيين رغم ما في هذا من مجافاة للأخلاق الإنسانية الكريمة ، وللتاريخ الإنساني الصحيح ؟

تهدف الصهيونية من وراء ذلك إلى :

١- التأكيد على فناء الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين عن آخرهم وبالتالي لا يكون هناك حق لأي عربي في فلسطين .

---

(١) عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ / ج ١ " التسلل أو الغزو العبراني لكنعان " . مرجع سابق .

وفي ذلك يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود عند حديثهم عن الشتات الروماني : " مارس الرومان نوعا من "التطهير العرقي" من أجل إبعاد اليهود عن القدس عاصمتهم المركزية، وكانوا مصممين على منع وقوع مزيد من الثورات اليهودية إلى درجة أنهم تخلوا عن تسمية المنطقة يهودا، وذلك من أجل فصلها عن اليهود تماما. غيّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" **المأخوذ من اسم الشعب القديم البائد المعروف بالفلسطينيين .** " ([1])

٢- اتخاذ الصهيونية من إبادة بني إسرائيل للكنعانيين ذريعة دينية لممارسة كافة أشكال المذابح العنصرية ضد العرب . معتبرة أن المجازر التي ترتكبوها في حق العرب جهاد مقدس مارسه سلفهم الصالح !!

استمر يشوع بن نون في حكم العبرانيين مدة ثمانية وعشرين عاماً، فقسَّم الأرض التي احتلوها بالقرعة على القبائل العبرانية، وكان يُحذِّر جماعة إسرائيل من ترك الرب وعبادة آلهة غريبة .

من القضاة إلى الملوك

قادت الصِّراعاتُ – التي واكبت الاستقرار في فلسطين – الأسباط إلى أن تَوثِّق العُرَى فيما بينها؛ لتُدافِع عن نفسها، وتُمارِس مهمَّة الغزو .

فكان بين الأسباط أولاً تحالُفات مُؤَقَّتة، وجزئية، تحت قيادة رؤساء مُلْهَمِين أطلَق عليهم الكتاب المقدس "القُضاة" امتدت لنحو مائتي عام (١٢٥٠-١٠٢٠ق.م) ولم يستطع العبرانيون السيطرة على كل أرض كنعان في فترة القضاة ، وهذا يعني أن الوجود العبراني ظل وجوداً متقطعاً جغرافياً ومحاطاً بأقوام معادية مثل الكنعانيين والفلسطينيين استمرت في مقاومة العبرانيين قروناً عديدة. وقد أوقع الفلسطينيون هزائم شديدة بالقبائل العبرانية واستولوا على تابوت العهد، وخضع العبرانيون لحكمهم لبعض الوقت .

وواكب ذلك غياب القوى العظمى في منطقة الشرق الأدنى القديم بسبب ظروفها الداخلية. وقد ساهمت هذه الأوضاع الداخلية والخارجية في أن نظام القضاة أصبح

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥١

نظاماً بالياً غير قادر على التعبير عن الأوضاع الجديدة، وأصبح نظام الملكية أمراً حتمياً للتعبير عن البنية الجديدة للمجتمع . (١)

وتعبر القصة التوراتية عن ذلك بطلب الشعب الإسرائيلي من نبي لهم يدعى " صموئيل " أن يجعل لهم مَلكاً مثل الشعوب الأخرى المتحضرة المحيطة بهم. فتوَّج عليهم شاول، ثم داود (١٠٠٤ . ٩٦٥ ق.م) الذي وحَّد القبائل العبرانية فيما يُسمَّى " المملكة العبرانية المتحدة " .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا فيذكر جل وعلا أن بني إسرائيل بعد أن ثقلت عليهم الهزيمة طلبوا من نبي لهم (صموئيل) أن يعين لهم ملكا ليقاتلوا أعداءهم فاختار لهم طالوت ملكا وزاده الله بسطة في العلم والجسم ، وقاد طالوت الصالحين من بني إسرائيل لحرب جالوت ملك الكنعانيين " وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ " (البقرة:٢٥١)

وهكذا قضى داود على الفلسطيني بالمقلاع والحجر وقتله . وإذ لم يكن بيده سيف ركض نحو جليات واخترط سيفه من غمده وقتله وقطع به رأسه . فلما رأى جبَّارهم قد قُتِل هربوا " (صموئيل الأول : ١٧)

مملكة داود وسليمان

عظم داود في عين بني إسرائيل بعدما حقق الانتصار الحاسم على أعدائهم وقتل رئيسهم فاختاروه ملكا عليهم بعد موت شاول " وتوافد جميع رؤساء أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون قائلين : " إننا لحمك وعظمك . وفي الأيام الغابرة عندما كان شاول ملكا علينا كنت أنت قائدنا في المعارك ، وقد قال الرب لك : " أنت ترعى شعبي إسرائيل وتتولى حكمه " .

وفي حضور شيوخ إسرائيل في حبرون قطع الملك داود معهم عهدا أمام الرب ، فنصبوه ملكا على إسرائيل " (صموئيل الثاني : ٥)

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤ " أشكال الإدارة الذاتية " . مرجع سابق .

عند ذلك تدخَّل الفلسطينيون للمرة الأخيرة، فهزمهم داود، وقد استطاع داود منذ ذلك الحين أن يبني دولته، واختار أولاً أورشليم مركزًا لها، وهي التي أُنْشِئت في بداية الألف الثانية قبل الميلاد، ولكنها منذ بُنِيَت لم تكن غزاها الإسرائيليون حتى عهد داود ،وقد دخل بمُرْتَزِقة تلك المدينة الكنعانية القديمة التي كان يسكنها اليبوسيون، " (صموئيل الثاني ٥/٦ .٩)

هذه المدينة التي تقع على مُفترَق طرُق مجموعتين من الأسباط . لم تكن مُلْحَقة بإسرائيل أو يهوذا، فصارت "مدينة داود" يسكنها دائمًا اليبوسيون، ولكنها تستقبل الملك الجديد، وحاشيته، وجنوده المُرْتَزِقة، وقد استقدم داود من المدينة الكنعانية قريات يريم التابوت الذي أخذه من الفلسطينيين، وأودَعه في أورشليم، ليجعل من هذه المدينة . رمزيًّا . مركزًا للرابطة بين الأسباط الاثني عشر، وهو يربطهم بماضيهم المقدس.

لقد أنشأ داود حينئذ دولة تقوم على تعدُّد العناصر، حيث يلقى الكنعانيون ترحيبًا في دولتي : يهوذا ، وإسرائيل ، وحيث يعترف الفلسطينيون والمؤابيون بسيادتها المُطلَقة، ومن بعدهم آرام دمشق الذين كانوا يُقَدِّمون الهدايا.

(صموئيل الثاني ٨/٦.١)

وهكذا أُنْشِئت مملكة تتجاوز حدود دولة إسرائيل، لقد كانت إمبراطورية فلسطينية ترتبط مُكَوِّناتها المتنافرة بشخص الملك وحده .

ولقد يسَّرت الظروف الدولية المُحِيطة مهمة داود، فلا مصر المُمَزَّقة بصِراعاتها الداخلية، ولا العراق الذي يحكمُه الكاسيون، ولا الحثيون الذين حطَّمهم غزو شعوب البحر . لم يكن هؤلاء جميعًا يستطيعون أن يقفوا في وجه توسُّع مملكة داود. (١)

مملكة سليمان

أقام داود في ملكه والوحي يتتابع عليه وسور الزابور تتنزل ، وبعد تمام أربعين عاما من دولته عهد إلى ابنه سليمان وأوصاه ببناء بيت المقدس ثم قُبض ودفن في بيت لحم .

قام بالملك بعد داود ابنه سليمان فقوي حكمه وآتاه الله من الملك ما لم يؤت أحدا من العالمين وأصهر إليه الملوك من كل ناحية بناتهم ثم شرع عليه السلام في بناء

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الثاني العبرانيون " من الرابطة المقدسة إلى المَلَكِيَّة " . مرجع سابق .

بيت المقدس ، واتخذها عاصمة لمملكته وكان هذا عام ١٠١٥ ق. م ، وعام ١٠٠٧ ق .م بنى بيت المقدس بناء عظيما ثم قبض سليمان عليه السلام ٩٩٧ ق . م ودفن بجوار قبر أبيه داود .

تحدثت التوراة عن المملكة الإسرائيلية الموحدة في عهد داود وسليمان ووصفتها بأنها كانت قمة الاستقلال السياسي العسكري والاقتصادي لشعب إسرائيل في العهود السابقة بعد أن وصلت احتلالات داوود من نهر الفرات إلى غزة . " وحَّد داود القبائل في مملكة واحدة وأسس إمبراطورية إسرائيلية كبرى امتدت من الحدود المصرية إلى بلاد ما بين النهرين " (١)

ولكن المكتشفات الأثرية لم تثبت صحة هذه الادعاءات ، حيث تبين أن الحركة العمرانية التي تحدثت عنها التوراة في هذه الفترة كانت شحيحة وقليلة وأن داود وسليمان كانا حاكمين لممالك قبلية تضم مناطق صغيرة : الأول في الخليل والثاني في القدس . كما أن مملكتي يهودا وإسرائيل كانتا في البداية منفصلتين ومستقلتين . وفي كثير من الأحيان كانت متخاصمتين . ولم تكن القدس في عهد داود وسليمان سوى مدينة صغيرة وربما كانت فيها قلعة ملك صغيرة ، غير أنها لم تكن بأي شكلٍ عاصمةَ للإمبراطورية التي وصفتها التوراة .

ولا زالت أعمال الحفريات التي تقوم بها إسرائيل حاليا تكشف عما لا يروق لمن يبحثون عن دلائل عما ما ذكرته التوراة . فقد اتضح من خلال الحفريات الجارية في منتصف عام ١٩٩٨ أن هناك أطلالاُ لمدينة كنعانية في القدس تحت أطلال ما يدعيه الإسرائيليون أطلال الهيكل الأول .

ويعود تاريخ هذه المدينة الكنعانية إلى ما قبل المدينة التي أسسها داود، والتي تتحدث عنها التوراة .وقد تبين أيضا أن هذه المدينة الكنعانية كانت كبيرة ومحصنة ولها شبكة مركزية للمياه، الأمر الذي يدل دلالة قاطعة على وجود حياة عامة منظمة على مستوى رفيع من الإدارة والتنظيم إذا كانت الأبحاث الأثرية المختلفة قد دحضت وألقت ظلالاً كثيفة من الشك على رواية التوراة لتاريخ بني إسرائيل القدامى فاتضح أن

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٢٩

احتلال المدن الكنعانية وتدميرها بالشكل الذي ذكرته التوراة ليس له أساس على أرض الواقع .

إذا كانت رواية التوراة لتاريخ بني إسرائيل من حيث نشأتهم وحلهم وترحالهم ، لم تتطابق والمكتشفات الأثرية على أرض الواقع ، فمن البديهي أن تكون الادعاءات بتحديد مكان الهيكل اليهودي تحت قبة الصخرة والمسجد الأقصى مصدر شك وجدل أيضا .

ومن هنا ، فان آراء العلماء والباحثين الأثريين حول موقع الهيكل تراوحت بين النفي التام لهذا الادعاء وبين التخمين حول هذا الموقع المزعوم من جهة أخرى . فالعالم فنكلشتاين يرى أن قدس داود لم تكن أكثر من قرية فقيرة بائسة ، وأنه ليس هنالك من شاهد أثري يدل على أن هيكل سليمان كان موجوداً بالفعل . ويصر فنكلشتاين على أن رواية التوراة لا تتطابق مع المكتشفات الأثرية الجديدة ، فمدينة مجدو لم يبنها سليمان وإنما بناها الكنعانيون .

وفي محاولته البحث عن مكان الهيكل المدعى توصل المهندس اليهودي طوبيا سيغف ، وهو الأثري الذي كرس سنوات طوالاً من حياته للبحث عن مكان هذا الهيكل في الحرم القدسي الشريف ، إلا أن الهيكل لا يقوم في المكان الذي تقع فيه قبة الصخرة اليوم . وهو بهذا يخالف رأي معظم الحاخامين اليهود "الإسرائيليين" . وبناء على ما أسماه الأدلة الظرفية يعتقد سيغف أن قدس الأقداس يقع تحت صنبور المياه الدائري للوضوء وأن أطلال الهيكل اليهودي مدفونة في الساحة الواقعة بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى .

وخلاصة القول هي أن الدلائل المادية الأثرية هي التي تكشف مدى تطابق الرواية التاريخية أياً كانت مع الواقع المادي الملموس الأمر الذي يعطي هذه الرواية المصداقية أو عدمها . وإن العبث والتخريب اللذين تتعرض لهما الآثار الإسلامية والمسيحية في القدس في محاولات بحث تهجسي لا طائل من ورائه لا تنفي الحقائق الملموسة والعلمية التي توصل إليها العلماء والباحثون الأثريون من خلال أبحاثهم

ومكتشفاتهم العلمية والأثرية والتي لم تسعف إلا الحقيقة التاريخية وان جاءت على خلاف ما يتمناه ويروج الذين يستندون إلى أساطير وأهواءٍ معينة . (١)

انقسام مملكة سليمان

بعد موت سليمان عليه السلام عام ٩٢٨ ق.م تولى ابنه رحبعام الملك وبدأت القوى التي خضعت لقوة سليمان في التمرد عليه فنصحه مستشاروه بأن يتشدد في التعامل مع شعبه ففر بعضهم إلى مصر ومنهم يُربْعام الذي منحه شيشنق فرعون مصر الحماية فاستطاع الاستقلال عن رحبعام وكون دويلة في الشمال سميت إسرائيل وعاصمتها شكيم (نابلس) بينما ظلت أورشليم عاصمة دولة رُحبعام التي سميت دولة يهوذا ، ومنها أخذ اليهود اسمهم .

وهكذا انقسمت المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين، سُمِّيت المملكة الجنوبية " يهودا " لأنها ضمت قبيلتي يهودا وبنيامين، وهما القبيلتان اللتان بايعتا رُحبعام بن سليمان ملكاً، في حين بايعت القبائل العشر الباقية يُربْعام ملكاً على الجزء الشمالي الذي سُمِّي باسم " مملكة يسرائيل " أو" المملكة الشمالية " وكانت القدس عاصمة مملكة يهودا التي تقع على البحر الميت .

بعد انقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين متنازعتين :المملكة الشمالية ، والمملكة الجنوبية ، انقسمت القبائل العبرانية الاثنتا عشرة إلى قسمين: عشر قبائل منها في المملكة الشمالية، وقبيلتا يهودا وبنيامين في المملكة الجنوبية .

السبي الآشوري والبابلي

بدأت الدولة الآشورية في التغلغل في شئون دولة رحبعام والتأثير عليه مما دفع شيشنق إلى إثبات سيطرته على الأمور فقام بغزو مملكة رحبعام عام ٩١٨ ق.م (مثلما غزا مملكة الفلسطيين وأدوم) وحمل معه كنوز الهيكل والقصر غنائم. ويذكر

---

(١) محمد فياض صلاحات " الرواية التوراتية لتاريخ بني إسرائيل على ضوء المكتشفات الأثرية الحديثة " نقلا عن المركز الفلسطيني للإعلام .

obeikandl.com

شيشنق في قائمة الكرنك مائة وخمسين مكاناً استولى عليها وبعد عودة شيشنق إلى مصر حاول ملك آشور استعادة نفوذه في المنطقة وإزالة آثار الحملة المصرية .

وقد شغل عرش يهودا تسعة عشر ملكاً . غير أن هذه المملكة الجنوبية دامت نحو قرن وثُلث بعد زوال المملكة الشمالية .

واستطاع شلمانصر الثالث الآشوري أن ينتصر على الملك الإسرائيلي ياهو وأن يفرض عليه ضريبة كبيرة ثم حاصر الآشوريين العديد من المدن الفلسطينية والقدس ولم تسلم القدس من الدمار إلا بعد أن قام حكام القدس بدفع الجزية لحكام آشور وقد أدى استمرار التمرد الإسرائيلي على الآشوريين والميل إلى التجسس لصالح مصر الضعيفة وقتها إلى بطش الآشوريين بدولة إسرائيل وسبي أهلها عام ٧٢١ ق. م وهو السبي الأول الذي تعرض له بنو إسرائيل .

وبعد ضعف الآشوريين راح البابليون من ناحية والمصريون من ناحية أخرى يتنازعون السيادة على أورشليم بينما ازداد بنو إسرائيل في بعدهم عن دين الله في هذا الوقت أخذ نبي الله أرميا ينصح بني إسرائيل بالتوبة والعودة إلى الحق ، ويحذرهم من أن يسلط الله تعالى عليهم أعداءهم البابليين فلم يعبئوا به وبالفعل غزا البابليون أورشليم واستطاعوا أن يستولوا عليها فذاق أهلها الجوع والمرض وقام نبوختنصر ملك بابل ينهب المدينة ودك صورها ودمر بيت المقدس الذي بناه سليمان وأجلى شعبها إلى بابل فيما سمي السبي البابلي فقتل منهم من قتل واستعبد منهم من بقي على قيد الحياة ، وهكذا انقرضت مملكة يهوذا ٥٤٦ ق.م .

سنة ٥٣٨ ق.م قام قورش ملك الفرس بالهجوم على بابل وهزم البابليين مستغلا حالة الضعف التي سيطرت على دولتهم وبُغْض الأسرى من يهوذا لها حيث عملوا له كجواسيس ومرتزقة وأخذ يُمَنِّيهم بإعادة هيكلهم فلما تمكن من الإمبراطورية البابلية فتح قورش الباب أمام عودة اليهود إلى أورشليم .

وقد رفض كثير من اليهود، وخصوصاً الأثرياء، العودة إلى فلسطين بعد مرسوم قورش، واكتفوا بدفع مساعدات مالية للعائدين. ويُقال إن قسماً كبيراً من اليهود العائدين كانوا من أحفاد الأسر الأرستقراطية والكهنوتية ذات المواقع الطبقية والمكانة المتميزة المرتبطة بالهيكل والعبادة القربانية، وهؤلاء استرجعوا بعودتهم بعضاً مما فقدوه من

مواقع ومزايا طبقية واجتماعية، وكانوا يعرفون أنهم سيكونون نخبة حاكمة جديدة أو جماعة وظيفية موالية للفرس تدير شئون فلسطين وأهلها لصالح الدولة الحاكمة . (١)

ولم يعد من بابل سوى أقلية قليلة، بسبب معدلات الاندماج العالية التي حقَّقها المهجَّرون. وكان النبي إرميا من أكبر مشجعي العبرانيين على الاندماج، إذ قال: " واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلُّوا لأجلها إلى الرب لأن سلامها يكون لكم بسلام " (إرميا : ٢٩).

بدأت سياسة عامة للتسامح الديني في بداية الحكم الفارسي وحاول اليهود الذين عادوا إلى أورشليم بناء الهيكل من جديد إلا أن سكان المدينة من العرب والحوريين والعموريين خافوا من نياتهم وتحصينهم لأسوار أورشليم فهددوا بالعصيان مما جعل الملك الفارسي الذي خلف قورش وقف الهيكل وعندما اعتلى " دارا " عرش القدس ٥١٩ ق.م سمح لليهود بإتمام بناء الهيكل وكان البناء الثاني بعد بناء سليمان عليه السلام له . لكن هل بُنِيَ الهيكل هذه المرة في نفس المكان الذي بناه سليمان فيه ، أم تغير المكان هذا ما لا يعرفه أحبار اليهود ولا يدعون معرفته .

لم يهنأ اليهود بالإقامة في القدس طويلا إذ دخلها الإسكندر الأكبر في سنة ٣٢٠ ق.م ثم ورثها خليفته القائد بطليموس وبعد ذلك انتقلت القدس من حكم البطالسة إلى حكم اليونانيين الذين اكتسحوا فلسطين سنة ٦٣ ق.م . واستولوا على القدس بقيادة بامبيوس ، ودكوا حصونها ونهبوا هيكلها ونصبوا فوقه التماثيل وقتلوا من اليهود الكثير وحذروا عليهم الختان وأرغموهم على انتهاك حرمة السبت ، وأكل لحم الخنزير .

وفي سنة ٢٠ ق.م بني هيرودس هيكل سليمان من جديد ، وقد ظل هذا الهيكل حتى سنة ٧٠ م حيث دمر الإمبراطور تيطس المدينة وأحرق الهيكل ، وهذا هو التدمير الثاني .

يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود : كان القرن الذي سبق تدمير الهيكل الثاني عام٧٠ م أحد القرون الأكثر توترا بالنسبة ليهود فلسطين اليونانية . الرومانية. لقد احتلت الإمبراطورية الرومانية يهودا، وكان اليهود يعيشون في كل الشرق الأوسط ،

---

(١) عبد الوهاب المسيري موسوعة " اليهود واليهودية والصهيونية " م ٤/ ج ١ " التهجير الآشوري والبابلى " .مرجع سابق .

واستقروا في كل شمال إفريقية وفي اليونان وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا، وألمانيا وحتى في بريطانيا. ونمت الجالية القديمة في بابل أيضا، وكان اليهود يعيشون في مصر وبلاد الرافدين، وقد دخلوا الجزيرة العربية حتى وصلوا اليمن .

لقد وعد العهد القديم بمكافأة اليهود بالسلام، والثروة ، والصحة والحياة الطيبة في هذا العالم إذا هم أطاعوا التوراة الإلهية (التثنية ٧، ١١) . لكن معظم اليهود لم يشعروا أن نصيبهم في هذا العالم يمثل تقواهم وإيمانهم بالله وبالميثاق. لقد شاهد اليهود إخوانهم المستقيمين يعانون من الفقر والمرض والعنف من قبل جنود روما ومسئوليها وشاهدوا في الوقت ذاته كيف يبدو أن الكفار الأقوياء يتمتعون بأفضل ما يمكن أن توفره الحياة .

لقد اضطهدت السلطات الرومانية الوثنية اليهود في أرضهم في الوقت الذي تمتعت فيه بكل اللذات الممكنة في الحياة .

وبالرغم من هذا فقد بدأ كثير من اليهود داخل الإمبراطورية الرومانية في الاعتقاد أن الشخصية التي سيكون على يدها الخلاص الإلهي هي شخصية تحظى بالتوجيه الرباني، وذلك خلال فترة الحكم الروماني الشرير . (١)

اليهود في زمن المسيح

لقد وَلَّد الاضطهاد الذي عانى منه اليهود على يد الرومان لديهم شعور توقع لظهور المهدي المخلِّص، واعتقد عدد منهم أن بعض الشخصيات النادرة هي فعلا المهدي المنتظر وكان أشهر هذه الشخصيات عيسى (يسوع) .

وإن كان بعض اليهود آمنوا بمقامه كالمسيح المخلص، فإن معظمهم لم يؤمنوا به لأنهم لم يستطيعوا تقبُّل الرسالة على أنها مسيحية؛ لأن يسوع الناصري لم يكن يتطابق في شيء مع الصورة التي كانت لديهم عن المسيح، ولكي نفهم إلى أي مدى خيَّب يسوع توقُّعهم ينبغي أن نضع رسالته في سياق اليهودية في زمانه.

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٣٦

obeikandl.com

إن رب الإيمان اليهودي خالق وسيد، وهو الذي يصنع التاريخ، وبنو إسرائيل هم شعبه، وقد أوحى إليهم مشيئته، وشريعة حياتهم، واختارهم، وعقد معهم "عهدًا" غير مشروط، فهو مرتبط بطاعتهم أو معصيتهم، فالاختيار، والعهد، والوعد، والشريعة هي التي تتحكم في تاريخهم.

هذه الشكلية، وضيق الأفق، بل والعرقية . تتجَلَّى في كل مُكَوِّنات المجتمع اليهودي في زمن يسوع . (١)

كان هذا هو موقف اليهود من السيد المسيح أما موقف الرومان فيكشف عنه مؤرخوهم فقد أكدت مدوناتهم أن الرومان لم يهتموا كثيرا بميلاد المسيح ولا بدعوته فهو بالنسبة لهم لم يكن ذا أهمية سياسية، وإنما كان مُهَيِّجًا يُتَوَقَّع منه الضرر، ضمن المهيجين الآخرين، وهم كثير، وهو ليس قوة سياسية، مثل متاتياس والمكابيين، أو مثل الزيلوتيين القادرين على تنظيم التمرد المسلَّح ضد روما. (٢)

ويبدو أن المسيح كان على قطيعة مع كل الجماعات اليهودية، والجماعة الوحيدة التي كانت له بها علاقة هي جماعة يوحنا المعمدان (نبي الله يحيي عليه السلام)

الذي أتاح لنا إنجيل لوقا أن نُحَدِّد لحظة ظهوره "في السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر" "لوقا ٣/١٠"، أي عام ٢٨ أو ٢٩م.

جاء المسيح بعظات ونصائح وحكم وأمثال يريد بذلك توجيه نظر الجماهير من اليهود إلى إخلاص العبادة لله تعالى والتخفيف من مادياتهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم وترك الرياء والنفاق وأن يتلبسوا بروح الدين الذي ورثوه عن أنبيائهم كما جاءهم ، جاء المسيح ليطلق اليهود من أسار الكهنة الذين يعوجون الشريعة ، ويقصرون العهد والاختيار والخلاص على اليهود شعب الله المختار بلا شرط ، ويجعل الاختيار والخلاص عام يشمل كل الأجناس وكل الشعوب ومشروط بالإيمان بالله والاستقامة على شرعه .

---

(١) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الثالث فلسطين النصرانية " . مرجع سابق .

(٢) نفسه .

openkanal.com

{ وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ {٦٣} إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ {٦٤} فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ }
(الزخرف : ٦٣-٦٥)

ولم يأت كلام المسيح على هوى اليهود إذ يجعل كل البشر سواء ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم من أجل هذا لم يتعرَّف اليهود فيه على المسيح الذي كانوا ينتظرون. لقد كانوا يُؤَمِّلُون مخلصًا يبعث مملكة داود "بكل الأوهام المختلقة، عبر القرون، في خيال الشعب . فعادوه ، وأغروا به الرومان ليقتلوه .

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ } (البقرة : ٨٧)

ولكن الله تعالى نجى نبيه وسلط علي من كفر به – اليهود – الرومان يسونهم سوء العذاب ، وأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

{ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ {٥٥} فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ {٥٦} وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } (آل عمران : ٥٥- ٥٧)

السبي الروماني

وقسَّى الله قلوب حكام روما وولاتها على اليهود الذين كفروا بالمسيح فأصبحوا أكثر قساوة وظلما حتى ثار اليهود سنة ٦٦ تحت زعامة المتحمسين الذين يؤمنون بأن الله سيمدهم بعونه في حربهم ضد كفار الرومان ويأتي "بآخر الزمان" المتوقع. لكن اليهود لم يكونوا علي رأي واحد فيما يتعلق بهذه الحرب. اعتقد كثير منهم إما أن الوقت ليس هو الوقت الموعود، وإما أن الحرب ليست الوسيلة المناسبة لتحقيق الخلاص .

إن الثورة اليهودية ضد روما قد تسببت في تمزيق هائل في الإمبراطورية الرومانية، واستقدمت وحدات من الجيش الروماني من مناطق متعددة من أوروبا والشرق الأوسط لإخمادها والقضاء عليها. ونجحت روما في النهاية بإعادة السيطرة على القدس سنة ٧٠ ودمرت الهيكل في أثناء العملية. وكانت آخر قلعة تسقط في أيدي الرومان هي مسّادا قرب البحر الميت وذلك سنة ٧٣ م .

لقد توقفت القرابين التي كان اليهود يقدمونها بعد تدمير الهيكل وانتهت الكهانة الوظيفية، ولم تعد القدس تلعب دور الموحد للأمة اليهودية المشتتة. ومع نهاية زعامة الكهانة اليهودية بدأ حكماء اليهود المتعلمين، أو الأحبار، يملئون الفراغ. ولعب السنهدرين أو مجلس العلماء دور المجلس التشريعي والقضائي المركزي وأصبح رئيسه السلطة اليهودية المركزية في العلاقات مع روما. ووضع تدمير الهيكل نهاية لليهودية التوراتية وبداية لظهور اليهودية (الحاخامية)

حدثت ثورة يهودية أخيرة في غاية التدمير ضد روما، وكان سببها أيضا الحكم الروماني الجائر، وقادتها شخصية عسكرية مهدية باسم شيمون باركوخبا ومساندة الحاخام عقيبا. انتزعا القدس من الرومان سنة ١٣٢ وحاولا إعادة بناء الهيكل. لكن فشلت "انتفاضة باركوخبا". ومحى الإمبراطور الروماني هدريان مدينة القدس بأكملها سنة ١٣٥، وبنى بعد ذلك مكانها مدينة كافرة تسمى إليا كابيتولينا، ومن هذا الاسم اللاتيني تكون أحد أسمائها العربية إلينا. ومنع اليهود من الظهور حول القدس تحت تهديد الموت. وأصبحت المنطقة حول المدينة خرابا مهجورا .

مارس الرومان نوعا من "التطهير العرقي" من أجل إبعاد اليهود عن القدس عاصمتهم المركزية، وكانوا مصممين على منع وقوع مزيد من الثورات اليهودية إلى درجة أنهم تخلوا عن تسمية المنطقة يهودا، وذلك من أجل فصلها عن اليهود تماما. غيّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" المأخوذ من اسم الشعب القديم المعروف بالفلسطينيين. أصبحت يهودا خرابا، وفر الناجون شمالا إلى الجليل أو خارج المنطقة كليا. ومنع الرومان الوثنيون – وكذلك المسيحيون فيما بعد – اليهود من دخول

القدس ما عدا يوما واحدا في السنة، اليوم التاسع من شهر آب الذي يصادف يوم حداد يهودي شامل . [1]

اليهود تحت الحكم البيزنطي

مع انتهاء القرن الرابع، وإثر اعتناق الإمبراطور قسطنطين المسيحية عام ٣١٣م وتأسيس الإمبراطورية البيزنطية، أصبحت فلسطين بلداً يعتنق معظم سكانها المسيحية. فقد بنيت الكنائس في المواقع المسيحية المقدسة في أورشليم وبيت لحم والجليل. كما أقيمت أديرة في عدة أماكن من البلاد. وحرم اليهود من استقلالهم الذاتي النسبي وحظر عليهم أداء مناصب عامة وكذلك دخول أورشليم باستثناء يوم واحد في السنة (التاسع من آب العبري) للإعراب عن حزنهم على خراب هيكل سليمان.

وحظي الغزو الفارسي عام ٦١٤ بتأييد اليهود، الذين أفعمت قلوبهم بالآمال في مجيء المخلص. وأبدى الفرس شكرهم على هذا الدعم، فمنحوا اليهود حرية إدارة في أورشليم، إلا أن هذه الفترة لم تدم إلا ثلاث سنوات. فبعد ذلك عاد الجيش البيزنطي واحتل المدينة (٦٢٩) وطرد السكان اليهود منها مرة أخرى. [2]

اليهود تحت الحكم العربي

عندما دخل المسلمون فلسطين عام: ٦٣٨ م . كان ذلك كما وَصَفَه البلاذري المؤرخ المسلم في القرن التاسع" . فتْحًا سهلاً .

والواقع أن ذلك لم يكن فتحًا، ولا انتصارًا حربيًّا، بل كان تحريرًا؛ ذلك أنه في عام : ٦٣٨ م لم يكن الذين وصلوا إلي فلسطين هم العرب، ولكنه الإسلام، فقد كان العرب فيها منذ أكثر من ثلاثةِ آلاف عام، منذ الهجرة السامية الأولي، القادمة من الجزيرة، والتي كانت تعيش مُتبدية على طول "الهلال الخصيب" يصدق ذلك علي الأمُوريين، والكنعانيين، والعبرانيين، الذين كان لهم نفس الأصل العرقي، وهم ينتمون إلي نفس المجموعة اللغوية .

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥١

([2]) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

obeikandi.com

وتدلُّ المخطوطات الإغريقية التي عُثِر عليها في الأردن أن أغلبية السكان في زمن الرومان كانوا عربًا و أن مهاجرينَ قدِموا، كسائر الموجات السابقة منذ ثلاثة آلاف عام . مِن الجزيرة العربية، وقد أنشأوا في القرن الرابع بعد ميلاد المسيح مملكة الأنباط في جنوب فلسطين .

فالذي وصل "عام ٦٣٨ م" مع المَوجة الجديدة من المهاجرين القادمين من الجزيرة العربية . إنما هو الإسلام .

والإسلام لا يَقنع بأن يكون مجرد دين كسائر الأديان، ولكنه كَمالُ الرسالات الإلهية التي أُوحيت مِن قبلُ في منطقة الهلال الخصيب . والله سبحانه يقول : { شرَعَ لكمْ مِن الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا والذي أوحينَا إليكَ وما وَصَّيْنَا بهِ إبراهيمَ ومُوسَى وعِيسَى أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيهِ }(الشورى: ١٣).

ويقول تعالى: { قُولوا آمَنَّا باللهِ ومَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وما أُنْزِلَ إلي إبْراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويَعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ مُوسى وعيسى وما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنْهُمْ ونحنُ لهُ مُسلمونَ }. (البقرة: ١٣٦، وأل عمران: ٨٤).

وعلى خلاف ما أبداه أباطرة "بيزنطة" من عدم تسامُحٍ، فقد بدا وصول الإسلام مُحرِّرًا لليهود، وللنصارى أي: لأغلبية سكان المنطقة، باستثناء المُحتلين، إغريقًا، أو بيزنطيين .

ولهذا فعندما اقترب المسلمون مِن سورية وفلسطين، اسْتُقبلوا استقبالاً أدبيًّا من قِبَلِ مجموع السكان، الذين كانوا عرَبًا مثلهم ، ومُستعدون أن يَعتنقوا وحدانية الإسلام الخالصة، والإسلام الذي يرى أن إبراهيم، وموسى وعيسى، رُسل الله، وهم أنبياء مُبَشِّرون بمحمد، مُرهصون بخَبَرِهِ .

كتب بار عبرايوس "بار العبري" يقول: "لقد أرسل ربُّ الثأر العرب ليُخلصونا مِن الرومان، لم تَعُد إلينا كنائسنا؛ لأن كل واحد أمسك ما كان يملكه، ولكنَّا كنا على الأقل قد تخلَّصنا من وحشية الإغريق، ومن بُغْضهم لنا ".

هذا الاستبداد القمعي الذي مارسه بعض الأباطرة البيزنطيين يُتيح لنا أن نفهم لماذا تقرَّر مصير سورية وفلسطين في معركة واحدة، هي معركة "اليرموك" التي حدثت في أوائل رجب سنة: ١٥ هجرية .

ولماذا سُحق الجيش البيزنطي ؟

لقد انفجر قبل المعركة تمرُّدٌ بين النصارى الأرمنيينَ في الجيش الإمبراطوري، وفي غمرة القتال انسحب النصارى العرب السوريون من الجيش البيزنطي، وحينئذ وجَد المُحتل الإغريقي نفسَه وحِيدًا، وقد انفضَّ عنه الشعب كله، فانْسحق، ووصلت الجيوش الإسلامية إلى دمشق دون قتال.

وفي دمشق، قرَّر سكانها، بعد انسحاب الفرقة البيزنطية، أن يَستسلموا وتولَّى أحد كبار موظفي الإمبراطورية، وهو عربيٌّ نصرانيٌّ، واسمه: منصور بن سرجون حاكم المدينة منذ رحيل المستعمرين . تولَّى المفاوضة لتسليم المدينة، فأنقذ حياة جميع السكان وأموالهم .

وفي أورشليم يطلب البطريرك النصرانيُّ "صفرون" السلام، شريطة أن يحضر الخليفة بنفسه إلى أورشليم، ليَضمن شروط الصلْح، وقبل الخليفة عمر بن الخطاب ، ويصف المُؤرخ رابو بورت مَقْدِمَهُ وَصْفًا رائعًا فيقول: "أما سكان أورشليم الذين اعتادوا أن يروا الأباطرة البيزنطيين في أُبَّهتهم، وأرديتهم المُطرزة بالذهب . فقد كان مَرْآهم للخليفة مَشْهدًا رائعًا، ذلك أن خليفة النبيِّ كان يرتدي بُرْدةً رَثَّةً مِن وَبَرِ الإبِل، وقد اخترق أورشليم على بَعير يحمل كل أمتعته، وما يكفيه مِن تمر ليَومٍ واحد، فكان هذا التناقُض بين بَساطة المُنتصر وتَقَشُّفه، وبين الهَوَس الباذخ الذي تعوَّد على الظهور به، ليس الآباطرة البيزنطيون وحسب، بل مُمثلوهم مِن ولاة الأقاليم . كان هذا التناقُض مُذْهِلاً، لم يَلْبث أن أحدَث تأْثيرَه العميق في شعب حانقٍ على حكومةٍ كانت في نَظره استبدادية جشعةً.

ويذكر المُؤرخون العرب أن الخليفة عمر لم يقبل الدعوة التي وُجِّهتْ إليه مِن البطريرك النصراني أن يُصلِّي في إحدى كنائس أورشليم، مَخافة أن يأتيَ بعضُ المسلمين المُتحمسين، فيَتخذوا ذلك ذريعةً لإقامة مسجدٍ مكان الكنيسة، تَخليدًا لذكرى صلاته فيها.

ولم يُخرج من فلسطين سوى المُستوطنين القدامى والمُحتلين مِن الإغريق، وقد أعلن الخليفة نداءً إلى أهل الكتاب "من يهود ونصارى ومسلمين" أن يتَّحِدُوا، فَضمِنَ إعلانه أمْنَ الأشخاص والأموال، وفرَض احترام رهبان النصارى، وذلك بألاَّ يُرهب أولئك الذين يعيشون مُنعزلينَ عن الناس حتى يَستمروا في أداء عبادتهم

(نصَّ كتاب الصلح بين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبين أهل إيلياء على أنه: " هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين مِن الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسَقيمها وبَريئها، وسائر مِلَّتِهَا أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا مِن خيْرها، ولا مِن صَليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دِينهم، ولا يُضار أحدٌ منهم، ولا يَسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخْرجوا منها الروم واللُّصوت "اللصوص"، فمَن خرج منهم فإنه آمِنٌ على نفسه وماله، حتى يَبلغوا مأْمَنهم، ومن قام منهم فهو آمنٌ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء مِن الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه، وماله مع الروم، ويُخلي بِيَعَهُمْ وصُلُبَهُمْ فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بِيَعِهِمْ وصُلُبهم، حتى يَبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها مِن أهل الأرض قبل مَقْتل فلانٍ، فمَن شاء منهم قعدوا، وعليه مثل ما على أهل إيلياء مِنَ الجِزْية ومَن شاء سار مع الروم، ومَن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يُؤْخَذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادُهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهْد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أَعطوا الذي عليهم من الجِزْية).

شهد على ذلك : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. " .

وهنا أيضًا يشهد رابوبورت، وهو يكتب في مؤلفه: "تاريخ فلسطين من وجهة النظر اليهودية: "يجب أن تعترف بأن إعلانًا كهذا في بداية القرن الوسيط "وقد الْتزمت به كل الجيوش الإسلامية بعامة" هو إعلانٌ حافل بالإنصاف، فهو يتنفَّس عدالةً وتسامُحًا، وما استطاع أباطرة بيزنطة ولا أساقفة الكنيسة أن يُعبروا مُطلقًا عن مشاعر من هذا القبيل باسم ذلك الذي دعاهم إلى دِين الحب.

إن وثيقةً كإعلان الخليفة كانت كفيلةً بإحداث تأثيرٍ عميق، لا في روح اليهود فحسب، بل في روح نصارى سورية وفلسطين، وبعضهم كان يُعاني من الظلم والطغيان، في حين كان الآخرون يُعانون من اضطهاد الكنيسة التابعة للدولة، جراء ما يَعتنقون من آراء دينية مختلفة، وكان الجميع يتحملون أغلال المُوظفين وأعباء الضرائب الباهظة".

لقد كانت سياسة الخفاء الأمويين الأوائل سياسة ليبرالية لدرجة أن البطاركة مِن أمثال منصور بن سرجون ومِن بعده ابنه، ثم ابنه الأصغر الذي يُطلق عليه الآن: "القديس يوحنا الدمشقي" . كانت لهم وظائف المراقبة العامة للمالية، أيْ: إنهم كانوا يُمثلون الشخصية الثانية في الدولة الإسلامية.

لقد كان التناقُض هائلاً بين مسلك المسلمين واستبدادية أباطرة بيزنطة .

لقد شهدت فلسطين، في عهد الخلفاء العرب أربعة قرونٍ من السلام والرخاء.
وكانت أورشليم "القدس" هي المدينة المقدسة للمسلمين، ولليهود، وللنصارى، على سواء. وبعد وفاة الخليفة عليٍّ اجتمع الرؤساء العرب في أورشليم عام: ٦٦٠م، ليُعلنوا معاوية مَلِكًا، مُؤسسًا لأسرة الأمويين، فبادر كما يقول المؤرخون العرب إلى الصلاة في جُلْجُثة (المكان الذي تقول الأناجيل: إن المسيح صُلب فيه، ففي "
متى ٢٧/٣٤) .

وبعد خلافة ابنه يزيد، "٦٨٠. ٦٨٣"، وعندما تولى الخلافة عبد الملك، بنى في أورشليم "القدس" المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، أول الأعمال الإسلامية وأجلُّها، قُبَّة الصخرة وقد بُنيت في الواقع "عام ٦٨٧م"

وقد أَلّف التلمود الفلسطيني في أكاديمية طبرية، وهو يُعتبر نقطة تجميع اليهود خلال ألف سنة، وبه اتجهت اليهودية إلى أن تكون دولة قومية.

وقد أمْكن بفَضل الخلفاء المسلمين وحدهم نقل أكاديمية طبرية إلى أورشليم، وبذلك أصبحت مركز إشعاع عقلي، حيث جرى تثبيت النص العِبراني للعهد القديم، "وهو ما يُطلق عليه: النص المِسْوري" وفي فلسطين أُلِّفت حينئذ أجمل الأشعار الطقوسية المسماة: "بيوتيم ". (١)

والدولة الصهيونية تعترف بحسن معاملة المسلمين لليهود إبان الفتح الإسلامي لفلسطين فعن الفتح الإسلامي يقول موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية : " جاء الفتح الإسلامي للبلاد بعد أربع سنوات من وفاة النبي محمد (ص) ٦٣٢. واستمر الحكم العربي للبلاد أكثر من أربعة قرون، وتوالى على الحكم الخلفاء الراشدون ثم خلفاء بني أمية من دمشق وخلفاء الدولة العباسية من بغداد ثم من مصر.

---

(١) لمزيد من التفصيل حول وضع اليهود وفلسطين تحت الحكم الإسلامي انظر رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة . مرجع سابق .

obeikandl.com

وفي البداية، تجدد التوطن اليهودي في القدس، ومنحت الطائفة اليهودية المكانة التي حظي بها أهل الذمة تحت الحكم الإسلامي، وهي المكانة التي تضمن سلامتهم وأمنهم وممتلكاتهم وحرية العبادة مقابل دفع الجزية ومع ذلك فإن القيود التي فرضت بعد ذلك على غير المسلمين (٧١٧م) أثرت على إدارة اليهود لشؤونهم العامة كما أثرت على ممارستهم لشعائرهم الدينية وعلى مكانتهم الشرعية. ونظراً لفرض ضرائب باهظة على المحاصيل الزراعية اضطر الكثير من اليهود إلى الانتقال من المناطق الريفية إلى المدن؛ ولكن أحوالهم المعيشية لم تتحسن. ونتيجة لتصاعد التمييز الاجتماعي والاقتصادي، اضطر الكثير إلى الهجرة من البلاد. ومع انتهاء القرن الحادي عشر طرأ انخفاض ملحوظ على عدد السكان اليهود في البلاد وفقدت قسماً من تماسكها التنظيمي والديني (١).

وسوء حال اليهود الاقتصادية والدينية في العصر العباسي الذي تدعيه الدولة الصهيونية هو محض افتراء وحسبنا للرد عليه هو ذكر ما كتبه المؤرخون الأكاديميون اليهود عن حال اليهود في العصر العباسي : " لقد مكَّنت وحدة الإمبراطورية العباسية تسهيل نقل الأشخاص والبضائع ورأس المال والأفكار من المركز اليهودي في بغداد إلى معظم العالم اليهودي، وبالفعل فإن حوالي ٩٠ % من يهود العالم آنذاك كانوا يعيشون في العالم الإسلامي.

وكان العالم اليهودي حرا في إدارة شئونه الداخلية بتدخل قليل من السلطات الإسلامية ما دام اليهود يدفعون ضرائبهم ويعترفون بسيادة الإسلام من خلال بعض التصرفات بعضها مذل شيئا ما. لا يهتم أسيادهم المسلمون كثيرا بما يقوم به اليهود ما داموا يحفظون السلام ويدفعون ضرائبهم (الحسبة أو الجزية) وما داموا ملتزمين بأماكنهم .

وصلت الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى فترتها الأكثر إنتاجا بين السنوات٩٠٠ و١٢٠٠، وتبعتها الحضارة اليهودية في العالم الإسلامي على المنوال نفسه .تطورت في أثناء هذه الفترة بعض أكبر أعمال الفلسفة اليهودية، والنحو، والقانون وفقه اللغة، وصناعة المعاجم مماثلا للتقدم الكبير لهذه الحقول في العالم

---

(١) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

الإسلامي. ووجد الشعر اليهودي بالعبرية نهضته أيضا في هذه الفترة وتشبه أوزانه وأسلوبه ومحتواه مثيلاتها في الشعر الإسلامي العربي وفي هذه الفترة أيضا بدأ العراق يفقد السيطرة السياسية للإمبراطورية .[1]

هذا اعتراف من المؤرخين الأكاديميين اليهود بحسن معاملة المسلمين لليهود الذين كانوا يمثلون ٩٠% من يهود العالم في الخلافة العباسية .ودونك هذه الأمثلة التي تؤكد تميز وضع اليهود تحت الحكم العربي الإسلامي في شتى البلاد .

إن قيام الدولة الأموية في أسبانيا والدولة الفاطمية في إفريقية ومصر قد جلب معه قيام الجاليات اليهودية التي تعيش في هذه المناطق. وجذب نجاح هذه المناطق النائية الاقتصادي والسياسي العلماء والمثقفين إلى المراكز الجديدة الناشئة .

لم يكن هذا أكثر وضوحا في أي مكان آخر مما هو في أسبانيا حيث ازدهرت الحضارة اليهودية جنبا إلى جنب مع ازدهار العلوم الإسلامية والدنيوية هناك. كان اليهودي حسدي ابن شبروت (ت ٩٧٥) طبيب خلفاء بني أمية ومستشارهم مثل عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني. لم يخدم فقط أسياده المسلمين بامتياز، لكنه أيضاً رعى الفنون والعلوم بين اليهود .فكما أن المسلمين الخلفاء والحكام والشخصيات البارزة لها بلاطاتها التي يدعمون فيها العلوم الإسلامية والدنيوية ويشجعونها، فكذلك تدعم الشخصيات اليهودية والمسيحية البارزة فنانيها ومثقفيها. وقد أدى هذا النشاط إلى انتشار ازدهار كبير للثقافة في كل أسبانيا المسلمة المعروفة بالأندلس في اللغة العربية. [2]

في عهد الخليفة الفاطمي العزيز: "٩٧٥ .٩٩٦م" كان الوزير الأول نصرانيًّا هو عيسى بن نِسطورس، وقد عَيَّن واليًا على دمشق يهوديًّا هو منسي ابن هزرا، بحيث كان النصارى واليهود يَحكمون الدولة، فجاء رد الفعل على عهد الخليفة الحاكم، ومِن هنا لا مجال لاعتبار وضْع فلسطين في ظل الفاطميين بالقاهرة وضْعًا مثاليًا، ففي عام: ٩٦٧م. أحرق المسلمون البطريرك يُوحنا "وأيد اليهودُ المسلمين في ذلك"، وأمر الخليفة الحاكم عام: ١٠٠٩ م بهدم أسوار قبر السيد المسيح بالقدس، ولكن الذي يبقى

([1]) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥٣- ٥٤

([2])الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق . ص ٥٣- ٥٤

هو أن هذه الحوادث تظل فردية، وأن اليهود والنصارى لم يتعرضوا مُطلقًا، في أرض الإسلام لأحداث اضطهاد أو إبادة على نحو ما فعل الغرْب مما سجَّله التاريخ، سواء في ذلك العرْبدة الدموية التي اقْتُرفتْ عندما استولى الصليبيون على بيت المقدس "أورشليم" وإبادة المانويينَ في القرن الثالث عشر الميلادي، ومَحاكم التفتيش الكاثوليكية التي تَبعث استعادة إسبانيَا في القرن الخامس عشر، وهي المحاكم التي نُصبت ضد المسلمين، واليهود، والنصارى المُهرطقين، ومَذابح اليهود التي قامت بها روسيَا القيصرية لاستِئصالهم، ومذابح كيشينيف في أوكْرانيا، وأخيرًا مذابح ألمانيا الهِتْلرية ضد الشيوعيين، وضد المسيحيين من أتباع الكنيسة المعادية لهتلر، وضد اليهود. (١)

اليهود تحت حكم غير العرب (البيزنطيون ـ الأتراك ـ الصليبيون)

خِلال الفترة من القرن العاشِر حتى الثالِث عشر لم يعرف اليهود والنصارى فِي فلسطين أحداث اضطهاد أو مذابح إلا مِن قبل المُحتلِّين، الغزاة، وذلِك فِي ثلاث مراحِل :

ففِي عام : ٩٥٠م قامت جيوش الإمبراطور النصراني، بِقِيادة نقفور فوكاس، البيزنطي . بِاحتِلال فلسطين، "فذبحت السكان، وأحرقت المنازِل، وخرَّبت الحقول والبساتِين، وقطعت الأشجَار المثمرة، وباعت الرجال والنِساء والأطفال عبِيدًا، ويمكن القول بأن الأرض المقدسة استحالت إلى صحراء بأيدي النصارى الغرب .

وفِي عام " ١٠٧١م حتى : ١٠٩٦م دُمِّرت فلسطين بغزو السلاجقة "نسبة إلى شيخ قبِيلة تركِية كانت تحكم ضواحي بخارِى ، فِي آسيا الوسطى"، لقد ادَّعَوا أنهم مسلِمون ولكِنهم نهبوا المساجِد كما نهبوا الكنائِس، والمعابِد، ولقي كثِير مِن الحُجاج اليهود أو النصارى . وهم كثِير . مصيرًا مُؤلمًا .

الحروب الصليبية دوافعها وآليات تنفذها ونتائجها

أما كارثة فلسطين الثالِثة فكانت على يدِ الصليبيين، اِبتِداء من عام: ١٠٩٦م، وكانت ذريعة هذِهِ الحملات هِي "الدفاع" عن نصارى الشرق وكان الحافز الأكبر وراء الحروب الصليبية خطبة حماسية ألقاها البابا أربان الثاني ودعا لسماعها كبار

---

(١) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة . مرجع سابق .

الإقطاعيين والفرسان والنبلاء ويمكن أن نرجح من قراءة نصوص الروايات التي أوردها المؤرخون حول خطبة البابا في كليرمون (مدينة صغيرة جنوب فرنسا) ، أولا : أنه كان يدعو إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين ، اعتمادا على نصوص وردت في الأناجيل المسيحية وأهمها نص يقول : " ٢٧وَمَنْ لاَ يَحْمِلُ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعُنِي، فَلاَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَكُونَ تِلْمِيذاً لِي." (لوقا : ١٤)

وثانيا : أنه يدعو إلى هذه الحملة المسلحة المقدسة باسم الرب بوصفه نائبا عنه في الأرض فقد ذكر فوشيه أن البابا خاطب المستمعين قائلا : " ومن ثمَّ فإنني لست أنا ، ولكن الرب هو الذي يحثكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضُّوا الناس من شتى الطبقات .. "

لقد تحدث أربان بهذه الصفة ليحث الفرسان على شن الحرب في سبيل المسيح ، وبرر هذه الحرب بأن هدفها أن تحرر الكنيسة الشرقية من ربقة المسلمين ، وأن تخلص الأرض المقدسة من سيطرتهم ، هذه الأرض التي وصفها الكتاب المقدس بأنها الأرض التي تفيض باللبن والعسل ، ووصفها أربان الثاني بأنها ميراث المسيح ، وامتدح البابا شجاعة الفرنج كما امتدح قدراتهم القتالية .. وأشار إلى منح غفران جزئي لكل من سيشارك في هذه الحملة ، سواء مات في الطريق إلى الأرض المقدسة ، أو قُتِل في الحرب ضد المسلمين .. وسارع الكثيرون إلى البابا يُقْسِمُون أمامه على القيام بالرحلة كما أخذ كثيرون يخبطون صلبانا من القماش على ستراتهم رمزا لأخذهم شارة الصليب (١)

لقد أعلن الصليبيون أن دافعهم الوحيد لشن حروبهم ضد العالم الإسلامي هو الدافع الديني المتمثل في :

١- تأمين طريق الحجاج المسيحيين إلى كنيسة القيامة بالقدس بعد أن ورود الشكوى الكثيرة إليهم من الحجاج عن سوء معاملة الأتراك السلاجقة لهم أثناء أداء فريضة الحج .

---

(١) د. قاسم عبده قاسم " ماهية الحروب الصليبية " عالم المعرفة ص ١١١ ، ١١٢

٢- استعادة الصليب المقدس (صليب الصلبوت) الذي كان في حوزة المسلمين في بيت المقدس .

وإلى جانب هذه الدوافع الدينية المعلنة من قِبَل قواد الحروب فقد كانت هناك دوافع أخرى اقتصادية ، وسياسية ، قصد بها هؤلاء القواد تحقيقها بواسطة هذه الحروب . وتمثلت الدوافع الاقتصادية في :

١- سوء الأحوال الاقتصادية عموما في أوربا آنذاك ، ورغبة دول الغرب في تحسين هذه الأحوال مما يحصلون عليه من خيرات بلاد الشرق الغنية .

٢- رغبة الفلاحين الأوربيين الذين وقعوا تحت وطأة النظام الإقطاعي الجائر في تحسين أحوالهم ، وخلاص أرواحهم بالمشاركة في هذه الحروب .

٣- رغبة فرسان أوروبا وأمرائها في حل مشاكلهم الاجتماعية ، والاقتصادية التي نتجت عن طبيعة النظام الإقطاعي الظالمة في الغرب الأوربي لذا سارعوا في قيادة جموع العامة المشاركة في هذه الحروب .

٤- حرص المدن الإيطالية التجارية مثل : بيزا ، وجنوة ، والبندقية على نقل الصليبيين على سفنهم ونقل سائر الإمدادات للصليبيين بهدف تحقيق مصالح تجارية خاصة بها . (١)

أما الدوافع السياسية لهذه الحروب فتتمثل في : رغبة البابا إبان الثاني في توحيد الإمبراطورية الرومانية (٢) وتأسِيس سلطة ثيوقراطية عن طريق إنشاء كنيسة رومانية في "الأرض المقدسة" فِي مواجهة الكنِيسة الشرقِية، وإنشاء دولة لاتينية فِي سورِية وفلسطين تكون قاعِدة لِلتأثِيرِ الروماني فِي الشرق حتى يصبح فِي مركز القوة بِحيث يفرض وحدة الكنائِس .

---

(١)د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، و د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " وزارة التربية والتعليم مطابع روز اليوسف ص ٥٩ .

(٢) انقسمت الإمبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس (٢٨٣- ٣٠٥) إلى قسمين : شرقية ، وغربية ، وانتقلت العاصمة أيام قسطنطين الأول من روما إلى القسطنطينية ، ومع ظهور الإمبراطورية البيزنطية ضعف الجزء الغربي ، وفقدت روما أهميتها بانتهاء الإمبراطورية الرومانية ، وتاريخها عندئذ هو تاريخ البابوية حيث أصبحت روما عاصمة الولايات البابوية . الموسوعة الثقافية مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ص ٤٩٨ .

وقد كان نداء الاستغاثة الذي وجهه الإمبراطور البيزنطي رومانس الرابع للبابا إربان الثاني بعد هزيمته الساحقة على يد السلاجقة في معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١م ، وجددها الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين سنة ١٠٩٥ م فرصة ذهبية لإربان الثاني لتحقيق حلم توحيد الإمبراطورية الرومانية تحت سلطته .

وكانت الاستجابة الشعبية لخطبة إربان الثاني أكبر من كل التوقعات ففي أنحاء فرنسا ، وفي الأراضي الواطئة ، وألمانيا ، وغرب إيطاليا ترددت أصداء الخطبة التي ألقاها أربان الثاني في كليرمون في السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥م .

كانت الظروف الاجتماعية البائسة وراء هذه الاستجابة الشعبية المذهلة لقد فهم الناس في غرب أوربا آنذاك دعوة أربان على أنها فرصة لمستقبل جديد وحياة أفضل في الشرق المقدس ، وفرصة لضمان الخلاص في يوم الدينونة إذا مات الإنسان وهو على الطريق صوب هذا الشرق المقدس .

لقد كان العامَّة من الفلاحين وفقراء أهل المدن يظنون أنفسهم أصفياء الرب لأنهم الفقراء ، وكان هذا المظهر الديني العاطفي هو ما ميز حركة الفقراء في غرب أوربا وموقفهم من دعوة البابا بيد أن هذا التدين العاطفي نفسه كان من أسباب ارتكابهم لأحط ضروب الجرائم ، كما كشف عن أبشع الشرور الدنيوية والأطماع المادية حتى بمقاييس تلك العصور التي اتسمت بالقسوة والغلظة .

الحملة الصليبية الأولى بدأت بمسيرة شعبية كبيرة قادها راهب يدعى بطرس الناسك في يوم سبت النور ١٢ أبريل ١٠٩٦ لقد سحر هذا الراهب ألباب الفقراء بفصاحته التي تتناقض مع هيئته الزرية ، إذ كان رث الثياب بينه وبين حماره شبه كبير .

ولقد ارتكبت هذه الحملة من جرائم السلب والنهب والقتل في حق الآمنين من سكان البلاد التي مروا بها ما يسمهم مع التتار والنازيين والصهاينة بميسم واحد فعند مدينة " سملين " على الحدود المجر كشف " جيش الرب " بقيادة بطرس الناسك عن وجهه القبيح فقد قام بمذبحة ضد إخوانهم المسيحيين الذين زعم جيش الرب أنه جاء لنجدتهم راح ضحية هذه المذبحة أربعة آلاف من أبناء " سملين " التي تحولت إلى خرائب تصاعد منها دخان الحرائق .

كما أحرق جيش الرب مساكن القرويين من أهل مدينة " نيش " مع سكانها الأحياء ، وعاث حماة الصليب فسادا في مدينة القسطنطينية فنهبوا وسرقوا وأحرقوا وارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيين . (١)

لم تكن مذابح حملة العامَّة موجهة ضد المسيحيين فحسب بل كانت مذابحهم ضد اليهود أشد لقد وضعت الكنِيسة اِبتِداءً شِعارها المجنون والإجرامِيّ المعادي للسامية ضِدّ "الشعب قاتل الإله" " فأوصلهم ذلِك إِلى أن يبدؤوا "الحرب المقدسة" بِإِقامة مذابح عبْر أوربا لمجتمعاتٍ يهودية كثِيرة، لينتهي الأمر بهذه الحملة إِلى الموت، حتى قبل أن يصِلوا إِلى آسيا الصغرى، وقلِيل فقط مِنهم اِلتحقوا بِالحربِ الصلِيبِية التِي يقودها الأمراء وهؤلاءِ الأمراء لم يبدؤوا إِلا بعد ستة أشهر من الحرب الصلِيبِية الشعبِية . لقد كان الهدف واضِحا أمامهم، وهو أن يقتطعوا إِماراتٍ فِي سورِية وفلسطين، بدعوى "نَبِيلَة" كانت تُخفي نواياهم الوضيعة ، لقد نالوا مُقَدَّمًا مَغْفِرَةً كامِلة مِن البابا، لِكل آثامهم، وإِعفاءً مِن ديونهم فِي أوربا، ومستقبلا جمِيلا فِي الشرق يقوم على النهب والسلب.

مذابح الصليبيين في مدينة القدس

ونجحت حملة الأمراء بعد انتصار قواتها على المسلمين في إقامة أربع إمارات صليبية هي : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس . كانت مملكة بيت المقدس هي ثالث الإمارات التي كونها الصليبيون في الشام بعد استيلائهم على المدينة المقدسة يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ / ١٥ يوليو ١٠٩٩م بعد حصار دام أربعِين يوما سقطت المدِينة المقدسة عِند اليهود، والنصارى، والمسلمين، واقتحمها القائد جودفروي دي بويون فانهال الصليبيون المُنتصرون على المدِينة عرْبدة ونهْبًا، وذبحا، مدة أسبوع، حتى قتلوا بحد السيف سبعة آلاف مِن المسلمين، لم يُفرقوا بين سِنٍّ وسِنّ، ولا بين جِنس وجِنس، أما اليهود فقد لجأوا إِلى المعابد الكبِيرة يُصلُّون، وسَدَّ الفِرنجة كل منافذ المدِينَة، ثم كدَّسوا حِزَمَ الأخشاب حَوْلهَا، وأشعلوا فِيها النِيران. فمن حاول الحرب أُجْهِزَ عليهِ فِي الحِوارِي والأزقَّة المحِيطة بِها، وأما الآخرون فقد أُحرقوا أحياء . (٢)

---

(١) لمزيد من التفصيل حول جرائم الحملات الصليبية راجع الفصل الثالث من كتاب " ماهية الحروب الصليبية " مرجع سابق .

(٢) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .مرجع سابق .

لقد أجمعت المصادر الإسلامية والمسيحية على همجية الجند الصليبيين وعلى دموية غزوهم حتى أن أحدهم ذكر أن هذه القوات كانت تخوض في دماء القتلى في شوارع المدينة المقدسة ، وأن قائد الحملة أقام فيها حمام دم لأهل الملل الثلاثة ، وأن رجاله انطلقوا في شوارعها يقتلون كل من يصادفهم من أهلها من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز .

يقول ستيفن رانسيمان وهو من أكبر المؤرخين للحروب الصليبية : " زاد في جنون الصليبيين ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد ، وانطلقوا في شوارع المدينة (المقدسة) وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز ، واستمرت المذبحة طوال ذلك اليوم وطوال الليل وفي صباح اليوم الثاني اقتحم الصليبيون المسجد الأقصى وأجهزوا على جميع اللاجئين إلى المسجد ، وحين توجه الأمير ريموند في الضحى لزيارة ساحة المسجد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه ، وقد أدت مذبحة بيت المقدس إلى خلو المدينة من سكانها " (١)

ويؤكد اليهود الصهاينة هذه الحقيقة : " بعد حصار دام خمسة أسابيع، احتلت الدفعة الأولى من فرسان الحملة الصليبية وجيوشهم مدينة القدس وقتلت معظم سكانها من غير المسيحيين. وتحصن اليهود داخل الكنس ودافعوا عن حيهم، ولكنهم أحرقوا أحياء أو أصبحوا عبيداً. (٢)

وفُرض على مملكة بيت المقدس النظام الإقطاعِيّ الغربي، مُخْتَلِطًا بِمَزِيج مِن العسكرِية والإكليروسية، دون أن تكون له علاقة بماضيها، أو بِماضِي سكانها، الذِين كانوا . يهودًا أو نصارى . أكثر قربًا إلى العرب المسلمين مِن أولئِك الغرباء الذِين لم يكونوا يترددون فِي تعذِيب مخالفيهم "المهرطقين" .

هذِهِ الدولة التِي كانت بِلا جذور لم تكن تستمد إيراداتها من البلد نفسه، بل كانت تعِيش على هِباتِ النقود التِي كانت تُجمع فِي الغرب بوساطة الكنِيسة، وما كان لها أن تبقى إلا بفضل انقسامات العالِم الإسلامِيّ (٣)

---

(١) ستيفن رانسيمان " تاريخ الحروب الصليبية " ترجمة السيد الباز العيني طبعة بيروت .

(٢) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

(٣) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .

تحرير القدس

كان لنجاح الغزو الصليبي لبلاد العالم الإسلامي وقع أليم في نفوس المسلمين ، وكان سقوط بيت المقدس في يد الصليبيين أهم دوافع الجهاد الديني وأهم عوامل يقظة المسلمين ، وعملهم على استرداد الأماكن المقدسة واستخلاصها من أيادي المعتدين الأوربيين ، وكانت أكبر قوتين إسلاميتين قد وقفتا عاجزتين بسبب ضعفهما أمام الغزو وهما الدولة العباسية ، والدولة الفاطمية ، وجاءت النجدة ، وكان الخلاص على يد السلاجقة ، ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين والمماليك

وكان عماد الدين زنكي حاكم حلب أول السلاجقة الذين تصدوا للعدوان الصليبي ، واستطاع أن يهزم أقوى قوات أول وأقوى إمارات الصليبيين ويستولي عليها وهي إمارة الرها ديسمبر ٥٣٩هـ / ١١٤٤ م ، وبعد مقتل عماد الدين وورث ابنه نور الدين محمود عنه أملاكه كما ورث جهاده ضد الصليبيين ، ولقد رأى نور الدين محمود أن الجهاد ضد الصليبيين لن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية ، والقضاء على الخلافة الفاطمية ، وإعادة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية ، وبالتالي وضع الصليبيين بين شقي الرحى ، وتحقق أمل نور الدين ؛ فاستولى على دمشق سنة ١١٥٤ م بعد وفاة حاكمها السلجوقي واتخذها قاعدة له ، وقربت النهاية المحتومة للصليبيين عندما استولى اثنان من قواد نور الدين محمود هما : أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين على مصر سنة ١١٦٨ م قبل أن يغزوها الصليبيون . وتحقق بذلك حلم نور الدين في وحدة الأمة الإسلامية ولم يبق أمامه إلا تحرير القدس إلا أن المنية وافته قبل أن يحقق حلمه الأخير .

أكمل صلاح الدين ما بدأه أستاذه نور الدين محمود فجمَّع قوى المسلمين بعد قضائه على الخلافة الفاطمية ، وأعلن الجهاد الديني ، وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العسكر فجاءته من كل مكان في دولته الكبيرة ، وبدأت معركة حطين بين المسلمين والصليبيين صباح السبت الموافق ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣ هـ / ٤ يوليو ١١٨٧ م ، واشتد الضرب واستعر القتال وحصرت جيوش الصليبيين بين حر القتال وحر الجو وحر الظمأ وهزموا في هذه المعركة هزيمة ساحقة فقتل منهم العدد الكبير كما أسر منهم أعداد هائلة وكان في مقدمة الأسرى جاى لوزجنان ملك القدس الذي أطلق صلاح الدين سراحه .

وبعد حطين غدت قلاع ومدن الصليبيين في بلاد الشام تحت رحمة صلاح الدين ومضى يفتح البلاد والمدن الصليبية واحدة بعد الأخرى فتحا متواصلا ، ولما فرغ

صلاح الدين من الاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية التي تمثل قواعد الصليبيين البحرية التي تربطهم بالغرب الأوربي توجه إلى القدس وكان قد اجتمع بها عدد كبير من الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين وتحصنوا بها ، وعزموا على الدفاع عنها لما لها من قدسية عندهم .

عرض صلاح الدين على أهل بيت المقدس التسليم على نفس شروط بقية المدن التي كانت للصليبيين في فلسطين ، لكنهم رفضوا الاستسلام أول الأمر وحين نجحت قوات صلاح الدين في نقب سور المدينة المقدسة أدركوا عدم جدوى المقاومة وطلبوا الصلح فقبل صلاح الدين أن يعطي للصليبيين الأمان على أن يغادروا خلال أربعين يوما .

وفي ذكرى ليلة الإسراء والمعراج يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ١٢ أكتوبر ١١٨٧ م دخل صلاح الدين بيت المقدس ، وأظهر من التسامح والعفو مع أهلها ما جعل المؤرخين المسلمين وغير المسلمين يذكرونه بالثناء والتقدير ، ولقد أمَّن صلاح الدين سكان المدينة جميعهم على أرواحهم ووزع جنوده في شوارع المدينة وأحيائها ليحفظوا الأمن والنظام بها ويحفظوا أرواح سكانها فلم يقع حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التي تلازم الفتح عادة ، وكانت الشروط التي فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم لدرجة أن بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين قال في هذا الصدد : " ولم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة "

وهذه العبارة في الواقع تتضمن حقائق ومعاني كثيرة لأن صلاح الدين لم يستغل انتصاره للتمثيل بأعدائه كما فعل الصليبيون بالمسلمين حينما احتلوا القدس سنة ١٠٩٩ بل تركهم يغادرون المدينة بأمتعتهم وأموالهم بعد دفع فدية معتدلة على القادرين ، أما الفقراء فقد تركهم يرحلون دون دفع الفدية المطلوبة ، أما النصارى الشرقيين فقد سمح لهم بالبقاء مع المسلمين .

ولم يحاول صلاح الدين هدم الكنائس المسيحية ، بل تركها واكتفى بإعادة المساجد التي حُوِّلت إلى كنائس ولا سيما المسجد الأقصى الذي كان الصليبيون قد حولوه إلى

كنيسة وأطلقوا عليه معبد سليمان ، وهذا يدل على أن صلاح الدين لم يكن يحارب الدين المسيحي بل كان يحارب السياسة الأوربية الاستعمارية . (١)

ولم يكتف صلاح الدين بترِك الكنائِس النصرانية مَفْتُوحَة لِلعِبادةِ، مِن جمِيع الاتجاهات، بل أعاد فتح المعابد اليهودية أيضا . (٢)

وحتى الرواية الصهيونية للتاريخ لا تنكر هذه الحقيقة : " عندما طرد الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الصليبيين (١١٨٧)، حصل اليهود ثانية على نسبة معينة من الحرية بما في ذلك حق الإقامة في القدس .ومع أن الصليبيين عادوا ووجدوا موطئ قدم في البلاد بعد وفاة صلاح الدين(١١٩٣) ، فقد اقتصر تواجدهم على شبكة من القلاع المحصنة. وانتهى حكم الصليبيين على البلاد نهائياً (١٢٩١) على أيدي المماليك الذين كانوا يشكلون طبقة عسكرية إسلامية كانت قد تولت الحكم في مصر. (٣)

ولقد أخْفقت جمِيع المحاولات الصليبية التِي بذلت لاستِعادة أورشليم بعد أن حررها صلاح الدين .

وبعد قرنينِ مِن الحرب الدائِمة، التِي غذَّتْها أسلِحة الغرب وأمواله استطاعت دولة المماليك قطع دابر الصليبيين عن الشام ، وإزالة الخطر الصليبي عن بلاد العرب.

وبذلك اِنتهت تِلك المُغامرة الحربِية المشئومة، التِي كانت بعِيدة عن الإيمان المسِيحِي بعد الصهيونية عن الإيمان اليهودي، وأنبِيائه.

ذلِك أن الصليبيين كانوا هم الصهيونية النصرانية، كما أن الصهيونية السياسِية هِي حرب صلِيبِية . (٤)

---

(١) د. عطية القوصي ، د. عبد العزيز نوار ، د. عاصم الدسوقي وغيرهم " الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث " مرجع سابق ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .مرجع سابق .

(٣) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

(٤) جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الرابع : فلسطين المسلمة .مرجع سابق .

فلسطين تحت الحكم العثماني

عاشت فلسطين قرونا مظلمة ومأساوية تحت الحكم العثماني التركي منذ عام: ١٤٥٣م وحتى وقوعها تحت الانتداب الإنجليزي ١٩٢٢م ؛ فلم تَذُقْ طعم الرفاهية إلا في عهد سليمان العظِيم "القانونِي"، أما فيما عدا هذه الفترة فقد فسد اِقتِصاد فلسطين، وانهارت زراعتها وصناعتها، كما بارت موانيها، وأَرْهَقَتِ الإتاوات الباهظة كاهل الفلاح، وكسدت صِناعات النسِيج، وإنتاج الزيت والصابون، حيث سحقتها أعباء الضرائب والديون ؛ إن الانحطاط في نوعية الحكم العثماني أدى إلى إشاعة الإهمال في البلاد. ولدى انتهاء القرن الثامن عشر كانت غالبية أصحاب الأراضي تتغيب عن أملاكها وتم تأجيرها لمزارعين أو فلاحين فقراء، وفرضت السلطات ضرائب باهظة وعشوائية. وجردت أحراش جبال الجليل والكرمل الكثيفة عن أشجارها، وتحولت الأراضي الزراعية إلى مستنقعات وصحارى. لذلك فكثيرًا ما كانت تشب الثورات ضد الحكام العثمانيين .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين توافدت إلى فلسطين موجتان كبيرتان من المهاجرين اليهود من أوروبا الشرقية، بوحي المبادئ الصهيونية. وكان هؤلاء الطلائعيون مصممين على احتلال فلسطين عن طريق فلاحة الأراضي . فقاموا باستصلاح الأراضي القاحلة التي أهملت خلال قرون عديدة وأنشئوا مستوطنات جديدة . على الرغم من أن شراء الأراضي كان محظوراً، والبناء ممنوعاً بغير إذن خاص، لا يمكن الحصول عليه إلاّ من اسطنبول .

وفي ديسمبر عام ١٩١٧، دخلت القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبي القدس، منهية بذلك ٤٠٠ سنة من الحكم العثماني. وكان الفيلق اليهودي، الذي اشتمل على ثلاث كتائب تضم الآلاف من المتطوعين اليهود، يشكل جزءاً لا يتجزأ من الجيش البريطاني .(١)

يهود أوروبا المسيحية

إذا كانت عدد اليهود الذين يعيشون في العالم العربي يمثل ٩٠% من مجموع يهود العالم في العصور الوسطى فإنه لم يعش في أوروبا في تلك العصور أكثر من١٠ %

---

(١) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

openkanar.com

من مجموع يهود العالم حيث كانت أوروبا في ذلك الوقت غير متطورة في الغالب ويفضل اليهود أن يعيشوا في الأماكن المتحضرة جدا.

ولكن الوضع الأوروبي تحسن كثيرا مع تقدم العصور المتوسطة وازداد سكانها اليهود تبعا لهذا التحسن. وكلما انحط العالم الإسلامي تحسن العالم الأوروبي المسيحي.

وحتى نكون منصفين سوف نترك الكلام للمؤرخين اليهود ليبنوا كيف كانت حياة اليهود في البلاد الإسلامية وحياتهم في أوربا المسيحية " إن الوضع بالنسبة ليهود أوروبا المسيحية ظل غير مستقر ؛ فالديانة المسيحية تعتبر نفسها الوريث الطبيعي للديانة اليهودية، ويولع المسيحيون باعتبار أنفسهم "إسرائيل الحقيقية مفترضين بذلك أن اليهود ليسوا أهلا للاسم. وبسبب اعتبار المسيحية نفسها ناسخة لليهودية فإن النظرة المسيحية الذاتية نفسها تتطلب أن يهان اليهود والديانة اليهودية ويصغروا علانية. وأصبح إذاً في غاية الأهمية لليهود الذين يعيشون بين المسيحيين أن يعيشوا في وضع منحط ومهين .

ورغم كل ذلك، يزداد سكان أوروبا من اليهود بانخفاض عددهم في العالم الإسلامي وقد استفاد اليهود من تحسن الأوضاع الاقتصادية والسياسية الأوروبية في العصور الوسطى المتأخرة. لكن على عكس العالم الإسلامي، فمع تقدم أوروبا المسيحية اقتصاديا، وفكريا، وعلميا فإن معاملتها لليهود لم تتحسن. وعلى عكس العالم الإسلامي أيضا حيث يوجد دائما مكان لليهود في المجتمع الواسع، فإن كثيرا من دول أوروبا المسيحية كانت تبحث عن التخلص من اليهود بالكامل . أشهر حالة هي حالة إسبانيا المسيحية التي طردت كل اليهود بالقوة أو أرغمتهم على تغيير دينهم سنة ١٤٩٢ ، وقامت بالعملية نفسها مع المسلمين بعد سنوات قليلة فيما بعد ، لكن طرد اليهود كلهم أيضا من بريطانيا، وفرنسا، ومن عدد من الولايات الألمانية كذلك . ولحسن الحظ فإنهم إذا طردوا من مكان، فإنهم استطاعوا أن يجدوا ملجأ في مكان آخر في أوروبا ولكن النتيجة المحصلة كانت في الغالب الفقر والمأساة .

إن وحدة العالم المسيحي هي أقل من وحدة العالم الإسلامي، وكان لدى اليهود مهارات ممتازة جعلتهم مرغوبين عند بعض الحكام والملوك المسيحيين، بالرغم من أن هذه المهارات نفسها جعلت منهم تهديدا للآخرين . وفي بعض الأحوال السيئة جدا

تعرض اليهود للمذابح في بعض المناطق، كما حدث في أثناء الحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ أو في أثناء مذابح أرمليدير الألمانية في السنوات ١٣٣٦ . ١٣٣٩م . وهكذا فلقد عاش اليهود في أوروبا لكن، وضعهم لم يتحسن في الغالب إلا بعد دخول العصر الحديث .([1])

لم يُمْنَح اليهود في كثير من الدول الغربية وضعا متساويا إلا في القرن العشرين، ولم يقبلوا أبدا في بعض الأماكن، وكان تحررهم في أماكن أخرى عكسياً تماما حيث اضطهدتهم روسيا القيصرية ، وألمانيا النازية .

لكن مع هزيمة النازية وانتصار الصهيونية أضحى اليهود في مكانة متميزة في الغرب تتسابق الحكومات لكسب ودهم وتحقيق مصالحهم . ولكن كيف حدث هذا التحول من الكراهية إلى الحب ، ومن العداء إلى الإخاء فهذا ما سنبينه في الفصل الخاص بالصهيونية .

خلاصة تاريخ بني إسرائيل

وفي نهاية هذا الاستعراض نذكر الخلاصات التالية :

١- إن سكان فلسطين قد جاء معظمهم من جزيرة العرب وأنهم ظلوا سكان هذه البلاد حتى عصرنا هذا .

٢- إن الله قد وعد بني إسرائيل الأرض المقدسة عندما كانوا مستقيمين على أمر الله وعندما كانت تسوسهم الأنبياء، فلما بدلوا وأعرضوا وكفروا ذهب هذا الحق من أيديهم .

٣- إن المسلمين هم أولى من بني إسرائيل بأنبيائهم وهم الورثة الحقيقيون لتراثهم ودعوة الإسلام هي استمرار لدعوة هؤلاء الأنبياء، وإن الحق الذي سعوا لتكريسه هو الحق الذي يسعى المسلمون لتكريسه .

٤- إن ملك بني إسرائيل لم يشمل في أي يوم من الأيام كل فلسطين المعروفة بحدودها الحالية، وإن المدة التي حكموا فيها بشكل مستقل تماماً هي مدة ضئيلة قياساً

([1])الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٥٥- ٥٦

openkandil.com

إلى تاريخ فلسطين وأنهم حتى عندما كانت لهم مملكتان كانوا في كثير من الأحيان خاضعين لنفوذ قوى أكبر منهم .

٥- إن الحكم الذاتي الذي تمتع به اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي كان ضعيفاً ومحدوداً بمنطقة القدس وضواحيها، ولم يتمتعوا بعد ذلك إلا باستقلال محدود في عهد المكابيين .

٦- إن اليهود بعد ذلك تشردوا في الأرض – بسبب منكراتهم وأفعالهم- ولم تعد لهم صلة بفلسطين لفترة استمرت حوالي ١٩٠٠ سنة متصلة .

وفي الختام نذكر قول هـ.ج.ولز في كتاب موجز التاريخ حول تجربة بني إسرائيل في فلسطين بعد السبي البابلي :

" كانت حياة العبرانيين (في فلسطين) تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار ، ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكة بني إسرائيل سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقية ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم " .

ويذكر المؤرخ المشهور غوستاف لوبون أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين " لم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعارتها وخرافاتها فقربوا لجميع آلهة قبيلتهم يهوه العبوس الحقود الذي لم يثقوا به إلا قليلاً" .

ويقول : " اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات. . إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر . . و(هم) لم يستحقوا أن يعدوا من الأمم المتمدنة بأي وجه " .

ويقول غوستاف لوبون أيضاً "وبقي بنوا إسرائيل حتى في عهد ملوكهم بدواً أفّاقين مفاجئين مغيرين سفاكين . . مندفعين في الخصام الوحشي"، ويقول "إن مزاج اليهود النفسي ظل على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب ابتدائية فقد كان اليهود عنُداً مندفعين غفلاً سذجاً جفاة كالوحوش والأطفال" . . "ولا تجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود" (١)

---

(١) انظر المركز الفلسطيني للإعلام .

إن تزوير تاريخ فلسطين القديم مسعى شرع به كتبة التوراة في العصر الفارسي الذي ساد فلسطين واستكمل في العصر الهلنستي، عندما أراد هؤلاء أن يكتبوا تاريخاً مشتهى لليهود، فنسجوا الحكايات الأسطورية عن ماض لهم مزعوم، أوقعت حقائق التاريخ في أحبولتها وما لبثت أن أسكتتها، وعلى امتداد قرون عديدة ظلت الأخيولة التوراتية هي المصدر الذي يكاد يكون وحيداً للكتابة عن تاريخ فلسطين القديم، خاصة في أزمنته التي سبقت العصر الهلنستي. أما في العصر الحديث، ومع نشوء علم الآثار وارتقاء سلطته المرجعية للتعرف على التاريخ القديم، فقد بذلت جهود محمومة للعثور على أي أثر مادي في فلسطين يثبت صدق المرويات التوراتية ويمنحها الشرعية التاريخية، ولكنهم لم يجدوا رغم كثرة الآثار والجهود الجبارة ، والأموال الطائلة " توجد في إسرائيل حوالي ٢٠,٠٠٠ موقع أثري معترف بها تقع تحت حماية القانون. وتتم أعمال الحفريات في عشرات المواقع من مختلف العهود التاريخية وفي جميع أنحاء البلاد كل عام.

وتقوم سلطة الآثار المكلفة بصيانة الآثار بإصدار التصاريح للحفريات لبعثات من إسرائيل ومن الخارج. وبموجب قانون الآثار الإسرائيلي يجب فحص جميع المواقع المنوي إجراء أعمال البناء فيها بحثًا عن آثار، وحفر هذه المواقع إذا اقتضت الضرورة ذلك.

ومن حق الدولة الاحتفاظ ببعض الآثار محل اهتمام الجمهور. ويتم عرض جزء من أهم هذه الآثار في متحف إسرائيل في أورشليم القدس. كما يوجد في المتحف هيكل الكتاب حيث تحفظ لفائف البحر الميت ويعرض بعضها للجمهور وتبذل جهود جبارة وأموال لصيانة وإعادة بناء مواقع أثرية قديمة. وتم فتح العشرات منها وهي من جميع الفترات التاريخية أمام الجمهور "(١)

ولما وجد دولة إسرائيل أن الأساطير التوراتية لا تثبت أمام المكتشفات الأثرية لجأت إلى عملية تزوير متعمد لتقديم شهادة مادية منقوشة على الحجر تبرهن صحة ما روته التوراة من أخبار، فكان أولاً ما اشتهر باسم نقش " دان " الذي تأكد تزويره، وما لبث أن تلاه ما عرف باسم نقش " يهوآش " الذي سقط سقوطاً ذريعاً عند فحصه علمياً على الرغم من كثرة المصدقين به.

---

(١) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت .

وهكذا إذا كانت التوراة قد ثبت أمرها حديثاً على أنها سجل لتزييف تاريخ فلسطين القديم ومصادرته فإن من لا يزالون يؤمنون بصدقيتها التاريخية –أو يريدون الإيمان بذلك – يقاومون بهدف الإمعان في هذا التزييف، مرة باستنطاق اللقى الأثرية بغير ما قالته،ومرة باستحداث لقى من عدم وتقويلها كلمات وردت في الحكايات التوراتية (١)

و اتضح من خلال هذا السياق الموجز من تاريخ اليهود حقيقة دعوتهم ملكية أرض فلسطين ، وأحقيتهم بها دون المسلمين، ونحن نجيبهم على ذلك فنقول : إن كانت دعوتكم تستند إلى أنكم أول من سكن تلك الأرض ، فهذا خلاف الواقع تاريخيا ، إذ يعتبر الفلسطينيون من أول من سكن تلك الأرض ، وإن ادعيتم أن حقكم في فلسطين حق ديني ، بمعنى أن الله أورثكم تلك الأرض ، فنقول : إن دعواكم تلك في هذا الوقت لا تستند سوى إلى الأماني الكاذبات . فميراث الله لا يؤتاه إلا من قام بدينه ، ونشر شرعته ، وأنتم قد أفسدتم في الأرض ، وتنكبتم الصراط المستقيم ، والتوراة أكبر شاهد على بعدكم وضلالكم ، فمن أين لكم الحق في الوراثة الدينية ، فأما تاريخيا فلما سبق وقلناه أن الفلسطينيين هم من أول من سكن أرض فلسطين . (٢)

وأما أحقية وراثة الأرض دينيا فالأمر ليس بالأماني إنما التمسك بدين الله وشرعه .

{ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا } (النساء : ١٢٣)

فالمتمسكون بدين الله وشرعه ، أحق بوعد الله ، قال تعالى :

{ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (الأعراف:١٢٨)

***

(١) انظر المركز الفلسطيني للإعلام .

(٢) " اليهود واليهودية " الشبكة الإسلامية. السبت : ٢٠٠٢/١٠/١٢